

سورة التوبة

أعوذ بالله السميع العليم
من الشيطان الرجيم

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ﴾

هذه السورة لا تبدأ بالبسملة، لأن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] أمان، وبراءة: نزلت لرفع هذا الأمان.. كما يقول سيدنا علي عليه السلام، أو لأن سيدنا عثمان رضي الله عنه هو الذي ترك «البسملة» بينهما، عندما كان يجمع القرآن؛ لأنه وجد أن قصة هذه السورة «التوبة» تشبه قصة «الأنفال»، حيث إن الأنفال فيها ذكر العهود، وهذه فيها قطع العهود.

إضافة إلى أن النبي ﷺ كان إذا نزلت عليه سورة أو آية قال: «اجعلوها في الموضع الذي يذكر فيه كذا، وكذا»، وقد توفي عليه الصلاة والسلام، ولم يبين لنا - كما يقول عثمان - أين نضعها؟ وقد ترك الصحابة كتابتها وتلاوتها في أول هذه السورة، دون أن ينكر أحدهم هذا أو يعترض عليه.

هذه السورة الكريمة: من أواخر ما نزل من القرآن الكريم.

وفي هذه الآية الأولى منها: يعلن الله تعالى البراءة ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقطع العهود المبرمة معهم إلى أجل غير محدود، أو إلى مدة هي أقل من أربعة أشهر، بين المسلمين وبينهم.

وهؤلاء وهؤلاء يعطيهم الله مهلة، ثم بعدها: يُقْتَلُونَ أو يُسْلِمُونَ، هذه المدة هي المذكورة في قوله تعالى:

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢﴾

يعني: سيروا أيها المشركون - بموجب هذه المهلة - ﴿فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ لكم فيها مطلق الأمان، وبعدها: تنتهي المعاهدات التي بينكم وبين المسلمين، بسبب هذه البراءة، التي فرضها الله تعالى، ولا أمان لكم بعد هذه المدة، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ﴾ يا مشركون، بالرغم من هذه المهلة ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: غير ناجين من عذابه، فلا تغتروا بهذا العقد المؤقت لكم بالأمان.

واعلموا أيضًا: ﴿أَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ﴾ الذين يُصِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، وحرّبهم لله ولرسوله وللمؤمنين، وذلك الخزي لهم يكون بالقتل في الدنيا، وعذاب النار في الآخرة.

وهذه البراءة من عهود المشركين ومهلتها تتم عبر إعلان عام، وفي مناسبة هامة، يقول الله تعالى:

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٣﴾

يعني: ﴿وَأَذِّنْ﴾ وإعلان عام ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ جميعًا يتم ويعلن ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ وهو يوم عرفة.

وهذا الإعلان العام يتكون من عدة مواد:

المادة الأولى: هي: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وعهودهم ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بريء منهم - أيضًا - ومن عهودهم.

المادة الثانية: هي: ﴿فَإِنْ تُبْتُمْ﴾ أيها المشركون من الكفر، وآمنتُمْ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مما أنتم فيه.

المادة الثالثة: هي: ﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن الإيمان، وبقيتم على الكفر والعناد ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ﴾ مع هذا الكفر والعناد ﴿غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي:

غير ناجين من عذابه، فلا تغتروا بما أنتم فيه من أمور الدنيا.

المادة الرابعة: هي ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بصفة عامة، وأصروا على كفرهم، ولم يتوبوا حتى موتهم ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

وقد بعث النبي ﷺ علياً رضي الله عنه، حين نزلت هذه الآيات، من أول السورة إلى نهاية قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وكلفه ﷺ أن يؤذن بها، ويُعلم الناس جميعاً في موسم الحج من العام التاسع الهجري، وأضاف النبي ﷺ إلى مواد هذا الإعلان الإلهي مادتين هما:

المادة الخامسة: هي: أن لا يحج بعد هذا العام مشرك.

المادة السادسة: هي: أن لا يطوف بالبيت أحد عارياً، حيث كانوا يطوفون عراياً من ملابسهم، ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها.

هذا ويستثنى من هذه البراءة العامة من المشركين ما تفيدته الآية التالية:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

يعني: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قبل ذلك بعهود أمان بينكم وبينهم، ﴿ثُمَّ﴾ وفوا بعهودهم و ﴿لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ من شروط العهود، أو يخلوا بها، ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا﴾ أي: يعاونوا ويساعدوا في حرب ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾، هؤلاء لا تقطعوا عهودهم، بل ﴿فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ الذي عاهدتموهم عليه ﴿إِلَىٰ﴾ انتهاء ﴿مُدَّتِهِمْ﴾ التي تنص عليها شروط العقد.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾ من ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ الوفاء بالعهود.

أما الذين قطعت معهم العهود، من المشركين، وأعطوا مهلة وهي أربعة أشهر، فيقول الله تعالى بالنسبة لهم:

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

أي: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ﴾ انتهى زمن ﴿الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ﴾ التي كانت هي مدة مهلتهم، قبل
قطع العهود معهم، وكذلك: إذا انتهت مدة عهود المشركين، الذين قال الله عنهم
﴿فَاتَّبِعُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤] لأنهم لم ينقضوا من عهودهم شيئاً،
ولم يساعدوا أحداً على حرب المسلمين، إذا انتهت مدة هؤلاء وهؤلاء: فتُفْطَعُ العهود
فوراً معهم، ولا يكون أمامهم إلا أحد أمرين: إما الدخول في الإسلام، أو القتال.

فإن أسلموا بعد انتهاء المهلة، أو المدة: فهو خيرٌ لهم.

وإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان، فالله عز وجل يقول: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين
أعرضوا عن الإيمان ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في جِلٍّ أو في حرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أسرى
﴿وَأَحْصُرُوهُمْ﴾ قيّدوهم عن الحركة، واحبسوهم، وامنعوهم من التصرف في البلاد،
﴿وَ﴾ لتحقيق ذلك ﴿أَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي: تربصوا لهم في كل مكان
تستطيعون رصدهم منه، والإمساك بهم فيه.

﴿فَإِن تَابُوا﴾ وأسلموا، بعد أسرهم، والإمساك بهم، وحسن إسلامهم، بأن ﴿أَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ فقد صاروا إخوانكم، وعلى هذا ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ وأطلقوا
سراحهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما حدث منهم قبلاً ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم، حيث هداهم للإسلام.
هذا: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ
بِمُؤْمَنَةٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

يعني: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين تبرأ الله منهم، وقطعت العهود معهم، أو
من غيرهم ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ أي: طلب الأمان من القتل، وأن تحفظه في جوارك مما
يخاف، فلا تقتله، بل ﴿فَأَجِرْهُ﴾ وأعطه الأمان، واجعله في جوارك؛ ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ﴾
منك ﴿كَلِمَ اللَّهِ﴾ وهو القرآن، الذي كانوا يمتنعون عن سماعه، ويتناهون عنه، كما في
قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فقد يهده الله ويؤمن

﴿ثُمَّ أَلْبَغْهُ﴾ حتى وإن لم يؤمن ﴿مَأْمَنَهُ﴾ أي: مكان أمنه، في داره، أو دار قومه؛ لأنه لا إقامة له بيننا، ولننظر في أمر نفسه بعد هذا التصرف من المسلمين معه، وبعد سماعه القرآن؛ فقد يهده الله ويؤمن.

﴿ذَلِكَ﴾ الحكم مناسب لدعوتهم، والسبب ﴿يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ دين الله، وما فيه صالحهم.

فإن قال قائل: لم تقطع هذه العهود مع المشركين؟ أجيب بقوله تعالى:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧﴾

أي: لم لا تقطع هذه العهود معهم، ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ وكيف يكون لهم عهد وأمان، وهم مشركون بالله، كافرون به ورسوله، غادرون في أمانهم، ناقضون لعهودهم؟

ومع ذلك: فقد استثنى الله من هؤلاء الناكثين للوعود، الناقضين للعهود ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يوم الحديبية في العام السادس، وهم قريش. ثم وضع شرطاً لاستمرار هذا العهد، حيث قال: ﴿فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ﴾ ووفوا بالعهد، ولم ينقضوه ﴿فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ على الوفاء به؛ فماذا تم؟ استقام النبي ﷺ ووفى بشروط العقد، أما هم فنقضوا العهد.

وهذه هي: طبيعة الشرك وأهله التي تدفع إلى إلغاء العهود معهم، ونبذ عقودهم؛ لغدرهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يوفون، ولا يغدرون.

ثم: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ﴿٨﴾

يعني: ﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين أمان منكم، وهم - في الوقت ذاته - ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يظفروا بكم، ويجدون فرصة لقتلكم أو إيدائكم ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ﴾ لا يراعون لكم ويحترمون ﴿إِلَّا﴾ قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ ولا عهداً، بل يقتلونكم أو يؤذونكم.

هم: يبغضونكم، ويحقدون عليكم، ويتربصون بكم الدوائر.

ولكن مراعاة لصالحتهم ﴿يُرْضَوْنَكُمْ﴾ بكلام حسن، يقولونه ﴿يَأْفُوهُمْ﴾ فقط ﴿يَقُولُونَ يَأْفُوهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، بل ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ الخير لكم، والوفاء بالعهود معكم، هؤلاء ﴿أَكْثَرُهُمْ فَسِيقُونَ﴾ غالبيتهم ناقضون للعهود، لا مروءة عندهم، ولا وفاء لديهم.

هؤلاء: ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾

أي: هؤلاء الذين تقطع معهم العهود ﴿أَشْتَرُوا﴾ استبدلوا ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وهي القرآن ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من متاع الدنيا الزائل، وشهواتها الخبيثة الفانية.

ولمَّا فعلوا ذلك واتبعوا الهوى، وخضعوا للشهوات ﴿فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أنفسهم وصرفوها عن الهداية، وصدّوا غيرهم أيضًا.

﴿إِنَّهُمْ﴾ بفعلهم هذا ﴿سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

إنهم: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ ﴿١٠﴾ .

يعني: هؤلاء ﴿لَا يَرْقُبُونَ﴾ لا يراعون، ولا يحترمون ﴿فِي مُؤْمِنٍ﴾ بصفة عامة ﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ قرابة، ولا عهداً، بل يقطعون الرحم، ويخونون العهود.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المجاوزون كل الحدود.

فكيف يكون إذن معهم عهد؟ بل كيف لا تقطع معهم العهود؟

ومع ذلك: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١﴾

أي: ﴿فَإِنْ﴾ تاب هؤلاء المعتدون عمّا هم فيه، وآمنوا بالله ورسوله ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ فقد صاروا منكم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

﴿وَ﴾ هكذا ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ونبيّن الأحكام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيعملون.

ثم يعود الحديث مرة أخرى عن المشركين الذين أعطوا مهلة أربعة أشهر، والمشركين الذين أعطوا مهلة إلى نهاية تمام مدة عهودهم، ولكن من زاوية أخرى غير ما سبق، حيث قال تعالى:

﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾

يعني: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ نكث هؤلاء في أيمانهم التي حلفوها عند عهودهم التي قطعوها على أنفسهم، وذلك قبل انتهاء مدة هذه العهود ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: في الإسلام ومبادئه، وعابوه، أو انتقصوا منه: فقد غدروا، وعلى ذلك: ﴿فَقَبِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ فيهم، أي: رؤساءهم، وزعماءهم؛ حيث ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ﴾ حقيقية، أو صادقة ﴿لَهُمْ﴾ بل هي مخادعة منهم، وهذا القتال ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ عن الفساد؛ إذ لا طريق يردعهم عن فسادهم إلا القتال.

ثم يعاتب ربنا المسلمين على عدم قتالهم، فيقول موبخاً:

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾
أي: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾ لم لا تقاتلون ﴿قَوْمًا﴾ اجتمعت فيهم هذه السيئات:

أولاً: ﴿نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ ونقضوا عهودهم.

ثانياً: ﴿وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة، أو قتله.

ثالثاً: ﴿وَهُمْ﴾ الذين ﴿بَدَءُكُمْ﴾ بالقتال ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والبادئ أظلم.

إذن ما الذي يمنعكم من قتالهم؟ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ وتخافون منهم؟

إذا كان الأمر كذلك: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ وتخافوه، وتقاتلون وتقتلون من أجله، ومن أجل دينه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حقاً.

وبعد هذا العتاب والتوبيخ يكون التحريض الصريح على قتالهم، حيث يقول المولى عز وجل:

﴿فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورَ

قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

يعني: ﴿فَتَلُوهُمْ﴾ أيها المسلمون، ففي ذلك خمس فوائد:

أولاً: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بعد أن كانوا يعذبونكم.

ثانياً: ﴿يُخْزِهِمْ﴾ بالهزيمة، والقهر، وذل الأسر.

ثالثاً: ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث إن النصر من عنده وحده.

رابعاً: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ طالما عانت وتعبت ومرضت من أذيتهم.

خامساً: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: قلوب المؤمنين، بسبب ما كانوا يرونه من علو الكفر وطغيان أهله.

ومع كل ذلك ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من هؤلاء الكافرين، إذا آمنوا، وفي هذا إخبار بأن بعضهم سيؤمن قبل موته.. وقد كان، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بما سيكون من هؤلاء ﴿حَكِيمٌ﴾ في قبول توبة من يؤمن.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى للمسلمين:

﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَهٍّ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾

أي: هل ﴿حَسِبْتُمْ﴾ يا مسلمون ﴿أَنْ تُتْرَكُوا﴾ دون اختبار وابتلاء يميّز الله به الصادق في إيمانه من غيره؟ وكان هذا الاختبار بفرضية الجهاد؛ ليكشف ﴿اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ في سبيل الله ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ في الوقت ذاته ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنفسهم ﴿وَلِجَهٍّ﴾ يعني: بطانة وأصدقاء ومستشارين، وأهل مودة من هؤلاء الكفار، يعني: يكشف هؤلاء المخلصين، ويميّزهم عن غيرهم.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعرف المخلص في جهاده من غيره، ويجازي كل فريق بما يستحق.

ثم يسوق لنا ربنا - سبحانه وتعالى - حكماً جديداً بالنسبة للمشركين، حيث يقول:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧)

يعني: ﴿مَا كَانَ﴾ ما ينبغي وما يصح ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أن يجمعوا بين أمرين متناقضين: ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾، عمارة المسجد الحرام، والإشراف على شؤونه، ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ والكفر الذي يشهدون به على أنفسهم.

﴿أُولَئِكَ﴾ مهما فعلوا، فقد ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ولا يؤجرون عليها، ﴿وَفِي النَّارِ﴾ مصيرهم، و﴿هُمْ خَالِدُونَ﴾ مقيمون أبداً.

وفي هذا: نزع لولايتهم عن المسجد الحرام، ومنع لهم من شرف القيام بخدماته، وخدمات زواره وعُمَّارِهِ.

ثم بين المولى عز وجل المستحقين لشرف عمارته، فقال:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (١٨)

أي: الذي يستحق أن يعمر ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ عمارة معنوية بالذكر، والصلاة والطواف.. إلى غير ذلك، وعمارة مادية من تنظيف، وتنوير، وصيانة.. إلى غير ذلك.. فهو كل ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾ أي: اجتمع له الإيمان، والعمل بالأركان، وكذلك ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لا يخاف إلا من الله، ولا يرضي أحداً سواه.

يقول ربنا: ﴿فَعَسَىٰ أُولَئِكَ﴾ الذين ذكروا ﴿أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ وهم مهتدون بإذن الله؛ لأنهم يقولون: «كل كلمة عسى في القرآن إذا كانت من الله: فما بعدها محقق».

وبالتالي: فغيرهم، وبالذات من المشركين، غير مهتدين.

وحتى يبطل الله ادعاءات بعض المشركين أنهم على خير ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤] ببعض صور الخير التي يفعلونها!!

وحتى لا يُخدع المسلمون ببعض الأعمال الخيرية التي يفعلها المشركون، فيظنون أنهم بذلك على خير!!

بيّن الله عز وجل أنه لا يستوي أهل الإيمان بالله تعالى ورسوله، أي: أهل الجهاد، بأهل سقاية الحجاج، وسكن المسجد الحرام، مع بقائهم على الشرك، فيقول سبحانه:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩)

يعني: لا يستوي عند الله تعالى من يفعل هذا مع من يفعل ذاك في القبول.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ المشركين، ولا يقبل أعمالهم مهما كانت.

والآية: تلفت نظرنا إلى موضوع هام يقع فيه كثير من المسلمين، وهو: قضية تقديم المفضل على الفاضل، حيث إنه أحياناً ما تُعطل فرائض لصالح نوافل، وأحياناً ما يكون التمسك بالأقل قيمة، والتفريط في الأعلى أهمية، وأحياناً ما يكون الاستنكار لما هو أكبر جرماً عند الله: أقل من الاستنكار لما هو أخف جرماً عند الله.

وهذا موضوع هام: ينبغي الانتباه إليه، وعدم الوقوع فيه.

ثم يوضح الله - إتماماً لعدم المساواة - أن المؤمنين المجاهدين هم الفائزون، فيقول:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠)

أي: إن الذين اتصفوا بهذه الصفات الثلاث: ﴿ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، هؤلاء:

أولاً: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأعلى منزلة، ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الذين يقومون بسقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام، مع بقائهم على الشرك.

وثانياً: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بالخير كله. ومن هذا الخير أن الله تعالى:

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (٢١)

يعني: لما اتصفوا بثلاث صفات وهي: الإيمان، والهجرة، والجهاد بالنفس والمال، بشرهم بشارات ثلاث وهي: الرحمة، والرضوان، والجنات التي فيها النعيم المقيم.

ومن هذا النعيم المقيم أنهم:

﴿خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢)

وأي أجر أعظم من هذا، إنه لا أعظم من هذا أبداً.

وأما من ترك الهجرة في سبيل الله من أجل أهله، وخوفاً على تجارته: فقد أنزل الله تعالى فيه قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣)

لما أمر الله تعالى بالتبرؤ، وقطع العلاقات مع المشركين، قال بعض الناس: كيف يقاطع الرجل ابنه وأباه وأخاه؟

فذكر الله تعالى: أن مقاطعة الرجل أهله وأقاربه المشركين من أجل الدين واجبة.

وعلى هذا: فالمؤمن لا يوالي، ولا يطيع الكافر، حتى وإن كان ابنه أو أباه أو أخاه؛ لأنهم ﴿اسْتَحَبُّوا﴾ واختاروا ﴿الْكُفْرَ﴾ بالله تعالى ورسوله، وفضلوا ذلك ﴿عَلَى الْإِيمَانِ﴾، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ﴾ أي: من يتخذهم أحباً وأولياء، أو يختار الإقامة معهم في دار الكفر، ويفضل ذلك على الهجرة والجهاد ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم وللمؤمنين ولدين الله؛ بمخالفتهم أمر الله، واختيار الكفار على المؤمنين.

لما نزلت هذه الآية قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إذا نحن هاجرنا من مكة إلى المدينة ضاعت أموالنا، وذهبت تجارتنا، وخربت ديارنا، وقطعت أرحامنا، فأنزل الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِئْرَةٌ تَحْتُونَ كِسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢٤)

أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين قالوا: «إذا نحن هاجرنا حدث كذا» ﴿إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي

اكتسبتموها ﴿وَتَجَرَّةٌ تَحْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بسبب مقاطعة الكفار لها ﴿وَمَسَكْنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ وتفضلونها، أي: إن كانت هذه الأشياء الثمانية حبها ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فقعدتم بسبب هذا الحب عن الهجرة والجهاد: ﴿فَقَرَّبْصُوا﴾ أي انتظروا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ أي: بعقابه، وفي هذا تهديد لمن آثر وفُضِّل لذات الدنيا على الآخرة.

كما أن الله تعالى يقول تهديدًا: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. مما يدل على أن من لم يكن الله ورسوله أحب إليه مما ذكر، ومن لم يكن الجهاد في سبيل الله أحب إليه مما ذكر، فهو فاسق ولا يستحق الهداية. وبمناسبة الجهاد في سبيل الله، وقاتل المشركين: ينبه ربنا عز وجل على أن النصر من عنده، قلَّ عدد المسلمين أو كثر!! وبذلك: تبرز قضية هامة جدًا، وهي: ضرورة التوكل على الله تعالى، والاعتماد عليه وحده، يقول الله سبحانه:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾

يعني: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ بتأييده لكم على أعدائكم ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ من مواطن ومواقع القتال، وكنتم حينها قليلو العدد كيوم بدر، ويوم الأحزاب، وخلافه. وأما ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهي موقعة كانت في وادٍ بين مكة والطائف، وكان عدد المسلمين اثنا عشر ألفًا، وأعداؤهم أربعة آلاف من المشركين.

يقول تعالى: اذكروا يا مسلمون ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ يومها وغرتكم ﴿كَثْرَتُكُمْ﴾ وقال قائلكم: «لن نُغْلِبَ اليوم من قلة» وتخلَّى عنكم الله - امتحانًا لكم - بنصره، ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ﴾ كثرتكم وتردُّ عنكم من الهزيمة ﴿شَيْئًا﴾ ووصل الحال إلى أن ﴿ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يعني: على سعتها لم تجدوا مكانًا تهربون إليه من عدوكم، وتطمئنون فيه على أنفسكم ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمُ﴾ وانصرفتم ﴿مُدْبِرِينَ﴾ منهزمين، بالرغم من كثرة عدوكم، وقلة عدوكم.

وما ذاك: إلا لعدم التوكل على الله، والاعتماد عليه، والاعتزاز بالكثرة والجنود والعتاد، والغفلة عن أن الله عز وجل هو الناصر وحده.

وكان هذا درسًا للمؤمنين عظيمًا:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٦)

يعني: ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد هذا الدرس لم يتخلَّ الله عن أوليائه؛ حيث ﴿أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ طمأنينته ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأمنهم بها من خوفهم، ورحمهم بها من فزعهم، كما أنه عز وجل ﴿أَنْزَلَ جُنُودًا﴾ تحارب الكفار معكم وهي: الملائكة، التي ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾ بعيونكم، ونصركم على أعدائكم بعد هزيمتكم، وبالرغم من قلة عددكم، وكذلك ﴿عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأيديكم؛ حيث قتلتم منهم ما قتلتم، وأسرتهم منهم ما أسرتهم ﴿وَذَلِكَ﴾ القتل والأسر ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ في الدنيا.

وبعد هذا: يفتح الله بابه أمام المشركين الذين عذبهم بأيدي جنوده، إذ يقول الغفور الرحيم:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٧)
أي: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ﴾ يفتح الله باب رحمته وتوبته ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ العذاب ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ من هؤلاء الكفار؛ حيث يلهمهم الدخول في الإسلام، فيدخلون، فيتوب عليهم، ويغفر لهم ما سبق منهم، ويرحمهم فيما هم قادمون عليه.
﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يستر بالإسلام ما سبق من الكفر وأعماله ﴿رَحِيمٌ﴾ بمن هداه إلى الإيمان.

ثم يقرر الله تعالى أن المشركين نجس، ويبنى عليه عز وجل حكمًا واضحًا وهو: أن على المسلمين منع المشركين من القرب - مجرد القرب - من المسجد الحرام، فيقول عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ

بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

أي: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ في كل الأزمان والبلدان، اعلموا ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ باطنًا، لكفرهم، وظاهرًا، لأنهم لا يتطهرون من الجنابات، ولا يجتنبون النجاسات، والحرم مكان طاهر مقدس، وبناء عليه ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ مجرد اقتراب، فضلًا عن الدخول فيه فهو: ممنوع ممنوع، وحرام حرام، فلا تمكّنوهم من ذلك، بل امنعوهم منه منعًا باتًا.

وكانت بداية هذا المنع في العام التاسع الهجري، ولَمَّا صدر الأمر بمنع هؤلاء المشركين من دخول منطقة الحرم: خاف أهل مكة من وقف حالهم، وقطع تجارتهم، وما يسببه ذلك من فقر وجوع، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ!!

فأنزل الله تعالى ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي فقرًا ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وقد أنجز الله وعده، حيث أرسل المطر عليهم مدرارًا؛ فكثر خيرهم، واطمأنوا على أنفسهم وأهليهم وأحوالهم، وما يزالون حتى اليوم في غنى وفير، وخير عميم، تظلّهم دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وحتى تظل قلوبهم معلقة بالله تعالى: فقد قيّد ربنا هذا الغنى بمشيئته حيث قال: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ ويظل كذلك التنبيه الدائم إلى أنه سبحانه المتفضل في ذلك وغيره.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمصالح العباد ﴿حَكِيمٌ﴾ في تحقيق الآمال.

وبهذا أصبحت أحكام الشرك والمشركين، من البراءة منهم، وقطع العهود معهم، ووجوب قتالهم، ومنعهم من دخول الحرم واضحة لا خفاء فيها، ولا لبس حولها، ولذلك: تنتقل الآيات إلى الحديث عن أهل الكتاب وأحكامهم، إذ يقول الله تعالى:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ﴿٢٩﴾

بعد أن انتشر الإسلام، وعَلَّتْ كلمته، وقوي المسلمون، وصارت لهم دولة وشوكة: كلّفهم الله تعالى بردّ الناس إلى دين الله الحق، وإنقاذهم من الباطل الذي يستعبدونهم، ويعيشون فيه، ويرضون به.

ولمّا كان الموقف - بهذا الخصوص - مع الكفار ينتهي إلى واحد من أمرين ؛ وهما:

دخولهم في الإسلام حتى يهتدوا بنوره، وينتفعوا بخيره، أو قتالهم، حتى لا يكونوا حرباً على الإسلام وأهله، فإن الموقف - بهذا الخصوص ذاته - مع أهل الكتاب، أي اليهود والنصارى، أوسع بعض الشيء، حيث ينتهي إلى واحد من ثلاثة أمور، وهي: دخولهم في الإسلام حتى يهتدوا بنوره، وينتفعوا بخيره، أو يدفعون للدولة أموالاً، نظير ما يستفيدون به من خدمات، وهم راضون، ودون تمّنع أو اعتراض، أو إن لم يحدث الأول أو الثاني يكون قتالهم؛ حتى لا يكونوا حرباً على الإسلام وأهله.

وعلى هذا: يكون معنى الآية الكريمة: يا أيها الذين آمنوا: ﴿فَقَاتِلُوا﴾ الذين يتصفون بهذه الصفات من أهل الكتاب لأنهم:

أولاً: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: لا يعرفونه حق المعرفة، ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. ثانياً: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في الكتاب والسنة. ثالثاً: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي: لم يدخلوا في الإسلام، بعد أن عرفتموهم ودعوتموهم إليه، قاتلوهم ﴿حَتَّىٰ يَعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي: يقبلوا دفعها ﴿عَن يَدٍ﴾ وغير امتناع ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ أي: راضون بسريان أحكام الإسلام عليهم. أهل الكتاب هؤلاء: يذكر الله تعالى من مقالاتهم، وأوصافهم، وأحوالهم، ما يلي:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلْنَاهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٣٠)

أي: ﴿وَقَالَتِ﴾ بعض فرق ﴿الْيَهُودُ﴾ واشتهر في الجميع ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ﴾ عيسى ﴿ابْنُ اللَّهِ﴾. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: قول هؤلاء وهؤلاء ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: يتفوهون به دون دليل على ما يقولون: لا هؤلاء، ولا هؤلاء.

﴿يُضَاهِئُونَ﴾ أي: يشابهون به، ويساويرون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ﴿مِن قَبْلُ﴾ هؤلاء: ﴿قَتَلْنَاهُمُ﴾ لعنهم ﴿اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق ويضلون عنه مع قيام الدليل الواضح عليه، وهو وحدانية الله.

أهل الكتاب هؤلاء:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١)

يعني: ﴿اتَّخَذُوا﴾ اتخذ أهل الكتاب هؤلاء ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾ علماءهم ﴿وَرُهْبَانَهُمْ﴾ عُبَادهم وُنسآكهم ﴿أَرْبَابًا﴾ يطيعونهم في التحليل والتحريم ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾، واتخذوا كذلك ﴿الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ إلهًا؛ حيث جعلوه ابن الله. ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ في التوراة، أو في الإنجيل ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ المستحق للعبادة ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي: تنزه وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معه من هذه الآلهة المزعومة أو من غيرها.

هؤلاء: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢)

أي: ﴿يُرِيدُونَ﴾ يريد هؤلاء، ويرغبون، ويحاولون ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ﴾ دين ﴿اللَّهِ﴾ وشريعته، وذلك ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بأقوالهم فيه، وأكاذيبهم عليه، والملاحظ: أنهم يريدون ويحاولون ويفعلون ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ﴾ ما يريد من خذلانهم، ونشر دينه، وانتصار دعوته، وهكذا: يتم الله ﴿نُورَهُ﴾ ويُعلي كلمته ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ذلك.

إن الذي يبطل كيدهم، ويخيب سعيهم، ويتم نشر نور الإسلام:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣٣)

أي: ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ محمدًا ﷺ ﴿بِالْهُدَىٰ﴾ للدنيا كلها ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الإسلام، وذلك ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي الإسلام ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ويُعلي أهله على أهل الدنيا كلها، حتى ينشروا العدل والسلام، وسوف يتحقق ذلك دائمًا بإذن الله ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ ذلك ﴿الْمُشْرِكُونَ﴾.

لقد بين الله عز وجل انحراف أهل الكتاب الذين ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾ يشرعون لهم ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] !!

كما بين أن أهل الكتاب هؤلاء، وكل أهل الكفر: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٢] !!

بعد هذا أخذ يوضح فساد كثير ﴿مِنَ الْأَعْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ [التوبة: ٣٤] هؤلاء، كما أخذ يهدد ﴿الَّذِينَ يَكْزِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] من هؤلاء وأمثالهم بقوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَعْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْزِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾

هذا خطاب من الله تعالى للذين آمنوا، فيه التحذير من التشبه بـ ﴿الْأَعْبَارِ﴾ وهم علماء اليهود، والتشبه بـ: ﴿الرُّهْبَانِ﴾ وهم عبّاد النصارى، حيث إنهم كانوا ﴿لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ عن غير طريق ما أحل الله، كالرشوة في الحكم وغير ذلك، لما كانوا ﴿يَصُدُّونَ﴾ الناس، ويمنعونهم ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ واتباع دينه.

يقول سفيان الثوري رحمه الله: من فسد من علماء المسلمين، كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّاد المسلمين، كان فيه شبه من النصارى.

ثم يقول ربنا عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَكْزِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ من هؤلاء الكثيرين ﴿مِنَ الْأَعْبَارِ وَالرُّهْبَانِ﴾ وكذلك من شابههم من المسلمين ﴿وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حسب ما أمر، ووفق ما شرع!! هؤلاء وهؤلاء ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أخبرهم بأن لهم من الله عذاباً مؤلماً شديداً.

ولكن متى، وأين يكون هذا العذاب؟

﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُتَكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يعني: يكون هذا العذاب ﴿يَوْمَ يُحْمَى﴾ يوقد ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ على هذه الكنوز، وتشتد النار، وتحمل عليها، وساعتها ﴿فَتَكْوَى﴾ أي: تحرق بهذه الكنوز - التي حُميت عليها نار جهنم - ﴿جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ يعني: من كل جهاتهم.

ويقال لهم: ﴿هَذَا﴾ العذاب جزاء ﴿مَا كُنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ من الأموال، وَمَنْعْتُمْ خيره عن غيركم من أصحاب الحقوق فيه، ﴿فَذُوقُوا﴾ يا من كنتم جزاء ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ﴾ وتمنعون.

ثم يعود الحديث عن المشركين، الذين يتلاعبون في الأشهر الحرم بالتقديم والتأخير، فيقرر المولى عز وجل الأشهر الحرم ويحددها قائلاً:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ المعتمد بها ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ للسنة ﴿اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ قمرياً ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ ثابتة في اللوح المحفوظ، منذ خلق الله ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ والأزمنة، ﴿مِنْهَا﴾ أي: من هذه الشهور ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب، والتي كان العرب قديماً يحرمون القتال فيها، فلما جاء الإسلام: زادها حُرمة وتعظيماً، فلا يجوز انتهاكها، كما أن الحسنات والسيئات تتضاعف فيها ﴿ذَلِكَ﴾ التحريم هو ﴿الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ المستقيم، الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والذي أقره الإسلام، وليس ما كانت العرب تفعله من تقديم هذه الأشهر وتأخيرها.

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾ في الأشهر الحرم، ولا في غيرها من الشهور ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ بارتكاب المعاصي، وانتهاك الحرمات؛ حيث إنها أعظم وزراً.

هذا، ﴿وَقَتِّلُوا﴾ يا مسلمون ﴿الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ يعني: كلهم في أي وقت ﴿كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ يعني: كلكم، في أي وقت.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتبعون تحديده لهذه الأشهر، وينفذون تعاليمه في قتال أعداء الأمة. هذا شرع الله:

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحْزِمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٧)

يعني: ﴿إِنَّمَا﴾ هذا ﴿النَّسِيءُ﴾ الذي كان يفعل في الجاهلية، من تغيير هذه الأشهر الحُرْم بالتقديم والتأخير، حسب رغبتهم في القتال هو ﴿زِيَادَةٌ﴾ منهم ﴿فِي الْكُفْرِ﴾ حيث خالفوا به تحديد الله لهذه الأشهر، كما أَنَّ هذا النسِيء ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقعون في الضلال والمخالفة وارتكاب الحرام؛ حيث ﴿يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُحْزِمُونَهُ عَامًا﴾ أي القتال في هذا الوقت أو ذاك ﴿لِيُؤَاطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ إذ المهم أن تكون الأشهر أربعة، وليس المهم ما هي هذه الأشهر، وبذلك ﴿فَيُحْلُوا﴾ بأنفسهم ﴿مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾.

وهكذا، ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ وحسبها صحيحة حسنة.
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ المخدوعين بأفعالهم، ومخالفاتهم لشرع الله تعالى.

بعد أن كانت الآيات السابقة من السورة الكريمة تأمر المسلمين بقتال غير المسلمين، ردًا لعدوانهم وكفًا لبغيهم، تبدأ الآيات التالية في حث المسلمين على هذا القتال ووجوب المسارعة إلى الجهاد إذا دعا الداعي، وطلبت النصرة، حيث يقول سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨)

نزلت هذه الآية الكريمة: حينما دعا النبي ﷺ إلى غزوة «تبوك» وشقَّ على الناس الخروج وتشاقلوا؛ لأن المسافة بعيدة بين المدينة وتبوك !! ولأن الزمان زمان عسرة ومشقة وفقر !! ولأن الجو كان حارًا، بل شديد الحرارة!!

فعاتب الله المسلمين قائلاً: ﴿مَا لَكُمْ﴾ وما الذي حدث ﴿إِذَا﴾ دعيتم من رسول الله و﴿قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ أي اخرجوا للقتال معه ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾، ﴿أَتَأْقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ تباطأتم وتكاسلتم كأنكم مربوطون في الأرض.

هل يعني ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ومتاعها، بدلاً ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾؟
اعلموا أنه ليس ﴿مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي بالنسبة لها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ لا يساوي شيئاً، حتى تركنوا إليه، وتركوا الجهاد. يا أيها الذين آمنوا:

﴿إِلَّا أَنْفِرُوا بِعَذَابِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩)

هذا تهديد للمتأقلين عن الجهاد في سبيل الله، الذين رضوا بالحياة الدنيا، وشغلوا بمتاعها وزينتها فلم يلبوا الدعوة، ولم ينفروا ولم يخرجوا في سبيل الله؛ دفاعاً عن الدين، والعرض، والأرض.

﴿إِلَّا أَنْفِرُوا﴾ إلى الجهاد ﴿بِعَذَابِكُمْ﴾ بالهزيمة، والذلة والهوان في الدنيا، أو بعذاب جهنم في الآخرة ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ شديد الإيلام، أيضاً ﴿وَيَسْتَبْدِلَ﴾ بكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ لنصرة دينه ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ في هذه الحالة؛ لأنه لا قيمة لكم، إذ لا قيمة لمن لا يدافع عن دينه، ولا يدافع عن قيمه ومبادئه، بل لا قيمة لمن لا مبادئ له. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينصر دينه بغيركم في هذه الحال.

يا من تأقلمت عن الخروج مع النبي ﷺ إلى الجهاد!!

﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٠)

يعني: يا مسلمون ﴿إِلَّا نَنْصُرُوهُ﴾ أي: إن تناقلتم عن نصرة النبي ﷺ فالله حافظه، وناصره، ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ سابقاً ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة حينما همّوا بقتله، وكان ﴿ثَاقِبَ أَتْنَيْنِ﴾ فقط، اذكروا ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ مختبئين من الأعداء، وهو ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ من أجلي ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بنصره وتأييده وحفظه.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من بشائر النصر ﴿سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ فاطمناً وهدأت نفسه ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ الله، أي: أيد حبيبه محمداً ﷺ ﴿بِجُنُودٍ﴾ من جنده ﴿لَمْ تَرَوْهَا﴾، وتحقق النصر للدعوة، حيث ﴿جَعَلَ﴾ الله ﴿كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ فلا وزن لها ولا قيمة ولا بقاء، وصارت ﴿كَلِمَةً اللَّهِ﴾ ودينه ودعوته، كما ﴿هِيَ﴾ دائماً ﴿الْعُلْيَا﴾ فلا تعلوها دعوة.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غالب ينصر أوليائه ﴿حَكِيمٌ﴾ يذل أعداء دعوته.

بعد أن عاب الله على بعض المسلمين كسلهم وتناقلهم عن الجهاد، وبعد أن هبّ النفوس لنوال نصر الله، يأمر بالنفير العام للجهاد، فيقول عز من قائل:

﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١)

أي: اخرجوا جميعاً للجهاد في سبيل الله ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: من يملك سلاحاً ومن لا يملك، أو شباباً وشيوخاً، أو ناشطين ومتناقلين ﴿وَجَاهِدُوا﴾ لنصرة الدين، وإعلاء كلمة الله ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ الخروج والجهاد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من ترك الجهاد ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل الجهاد، وثوابه، وضرورة المسارعة إليه.

ولمّا كان هذا الأمر عامّاً، والخروج للجهاد أصبح حتماً: لم يتخلف عنه إلا المنافقين الذين قال الله عنهم:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾

وَسَيُحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

يعني: ﴿لَوْ كَانَ﴾ ما دعوتهم إليه، وطلبت منهم الخروج معك بسببه ﴿عَرَضًا﴾ من متاع الدنيا ﴿قَرِيبًا﴾ سهل الحصول عليه، بدون أية مشقة أو صعوبة، والطريق إليه ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي قريبًا!! ﴿لَا تَبْعُوكَ﴾ وذهبوا معك في هذه الحالة؛ بسبب ما فيها من مكاسب دنيوية، ﴿وَلَكِنْ﴾ ما دعوتهم إليه من الجهاد ﴿بُعِثَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ أي: المسافة، فوق أنها شاقة عليهم، ومتعبة لهم، ولذلك: ما ذهبوا معك، ولا اتبعوك.

وعندما تعود من ساحة الجهاد ﴿سَيُحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ لك معتردين عن تخلفهم عن الذهاب معك، قائلين ﴿لَوْ اسْتَطَعْنَا﴾ الخروج ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ للقتال، ﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بهذا الاعتذار الكاذب، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ﴾ فيه ﴿لَكَاذِبُونَ﴾. وهذا وعيد لهم وتهديد.

ولأنهم كانوا قد استأذنوا من النبي ﷺ في التخلف عن الغزوة، وأذن لهم، فقد عاتبه الله على ذلك بآرَقِ أنواع العتاب، حيث صدر هذا العتاب بالعفو الإلهي قاتلاً لحبيبه عليه الصلاة والسلام:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٤٣﴾

أي: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ إذ ﴿أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ في التخلف عن الغزوة، وكان الأولى: ألا تأذن لهم ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ﴾ ويظهر ﴿لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ منهم في أَعذارهم التي ساقوها ﴿وَتَعْلَمَ﴾ كذلك ﴿الْكَاذِبِينَ﴾.

ثم بيّن ربنا أن المؤمن لا يستأذن ليتخلف عن الجهاد، بل هو يسارع إلى ساحته بماله ونفسه، حيث يقول الله تعالى:

﴿لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٤﴾

يعني: ﴿لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لا يتخلفون عن الجهاد، ولا يستأذنونك في أن لا ﴿يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ في سبيل الله، بل هم يسارعون إلى الجهاد.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ الذين يجاهدون، ولا يعتذرون.

﴿إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (٤٥)

يعني: ﴿إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ﴾ في التخلف عن الجهاد، هم ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في هذه الأمور، وتشككت فيها، وبسبب ذلك: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ﴾ شكهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ﴾ يتحيرون، فلا ثبات لهم على مبدأ، ولا اطمئنان لنفوسهم في شيء.

هؤلاء: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ قد رغبوا في التخلف عن رسول الله ﷺ، والقعود عن الجهاد من أول الأمر.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٤٦)

يعني: هؤلاء الذين تخلفوا ﴿وَلَوْ أَرَادُوا﴾ بصدق ﴿الْخُرُوجِ﴾ للجهاد معك، لظهر عليهم و﴿لَأَعَدُّوا لَهُ﴾ من آلة الحرب والزاد، ﴿وَلَكِنْ﴾ لم يفعلوا ذلك.

كما ﴿كَرِهَ اللَّهُ﴾ أي: أن الله تعالى كرهه، ولم يرد ﴿انْبِعَاثَهُمْ﴾ أي خروجهم ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: ضعف رغبتهم، وكسلهم عن الخروج، ﴿وَقِيلَ﴾ من بعضهم لبعض ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ عن الجهاد من النساء والصبيان.

وهذا: ذم شديد لهم، وسخرية لاذعة من حالهم، في الوقت الذي فيه تقوية للمسلمين حيث إنهم، كما يقول رب العزة:

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٤٧)

يعني: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ﴾ خرج هؤلاء المنافقون معكم للقتال وصاروا في صفوفكم وبين جموعكم ﴿مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي فسادًا وشرًّا؛ لأنهم جبناء ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ بالنميمة ﴿يَبْغُونَكُمْ﴾ يريدون لكم ﴿الْفِتْنَةَ﴾ بإلقاء العداوة بينكم، خاصة: وَأَنَّ ﴿فِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ ما يقولون سماع قبول وتأثر؛ لضعف إيمانهم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ المنافقين هؤلاء.

﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (٤٨)

أي: ليست هذه أول مرة يريدون فيها الفتنة والشر لكم ﴿لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ﴾ والهلاك لكم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ هذا اليوم.

وذلك: يوم قديمتم المدينة مهاجرين إليها، ويوم أحد حيث رجعوا عنكم، ولم يقاتلوا معكم، وصدوا الناس عن ذلك، إلى غير هذا من صُور كيدهم للإسلام، وأفعالهم القبيحة.

﴿وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: دَبَرُوا الحِيلَ، وأشاعوا قولة السوء؛ إبطاءً للدين، وحرَبًا للدعوة، وظلُّوا على ذلك ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ والنصر للإسلام ﴿وَبَدَّ ظَهْرُ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: دينه، وعلت رايته ﴿وَهُمْ﴾ لذلك ﴿كَارِهُونَ﴾.

هذا موقف المنافقين من الجهاد عامة، ومن الدعوة، ومن صاحبها عليه الصلاة والسلام، وهم - فوق ذلك - نماذج وفرادى.

ويسوق الله عز وجل بيان بعض فرقهم هذه، فيقول جل جلاله:

﴿وَمِنْهُمْ مَن يَكْفُرُ أَتَدْنِي وَلَا نُفَتِنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩)

يعني: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن هؤلاء المنافقين ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ لك يا محمد ﴿أَتَدْنِي﴾ لي ﴿فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ﴾ وَلَا نُفَتِنِي ﴿وَتَوَقَّعَنِي فِي الْإِثْمِ وَالْفِتْنَةِ﴾ إن لم تأذن لي، أو: لا تفتني بهلاك مالي وعيالي إن خرجت معك، أو غير ذلك من صُور الفتنة، التي زعموها، وتعلَّلوا بها لعدم الخروج.

﴿أَلَا﴾ إنهم ﴿فِي الْفِتْنَةِ﴾ وهي التخلف ﴿سَقَطُوا﴾ في الإثم والهلاك.
﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ المنافقين، لا نجاة لهم منها.

هؤلاء يا محمد:

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾
أي: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعض غزواتك ﴿حَسَنَةٌ﴾ من نصر وغنيمة ﴿سُوءُهُمْ﴾ وتغمُّهم؛ لأنهم لا يحبون المؤمنين.

﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ﴾ في بعض غزواتك الأخرى ﴿مُصِيبَةٌ﴾ من شدة وقتل لبعض أصحابك من المسلمين ﴿يَقُولُوا﴾ شماتة، وافتخاراً ببعدهم عن مواطن هذا القتال معك ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾ واحتياطنا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ هذه المصيبة، ﴿وَيَتَوَلَّوْا﴾ عنك ويتعدوا ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون بما حدث لك، مما لم يحدث لهم.

يا محمد، ويا أيها المؤمن في كل زمان، وفي أي مكان:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَنْ يُصِيبَنَا﴾ ويحدث لنا من خير أو شر ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ وقدر علينا، ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ الذي يتولى أمورنا، ويرعى أحوالنا، ونؤمن بقضائه وقدره سبحانه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ونحن مؤمنون به، وأما أنتم فلا تشعرون بحلاوة هذا الإيمان، ولا بلذة هذا التوكل على الله.

يا محمد، ويا أيها المؤمن في كل زمان، وفي أي مكان:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين ﴿هَلْ تَرَبَّصُوا بِنَا﴾ أي: هل تنتظرون لنا ﴿إِلَّا﴾ ما نراه نحن ﴿إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ النصر عليكم، أو الشهادة في سبيل الله، ﴿و﴾ أما ﴿نَحْنُ﴾ المؤمنون بالله، الْمُتَوَكِّلُونَ عليه، المجاهدون في سبيله ﴿نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ ونتظر لكم ما نراه إحدى السواتين:

الأولى: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ كما عذب مَنْ قبلكم من الكافرين في الأمم السابقة.

الثانية: ﴿أَوْ﴾ يصيبكم بعذاب يتم لكم ﴿بِأَيِّدِنَا﴾ حيث نقتلكم ونبيدكم. ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ بنا كما تحبون ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ بكم، وسنرى نحن وأنتم لمن تكون العاقبة، والتي هي حتمًا: للمتقين.

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (٥٣) يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ثالثًا: ﴿أَنْفِقُوا﴾ أموالكم ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مهما أنفقتم ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ لأنه لم يقصد به وجه الله؛ حيث ﴿إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ والله لا يتقبل إلا من المتقين.

﴿وَمَا مِنْهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ (٥٤)

أي: أن الذي منع هؤلاء المنافقين من قبول الله تعالى ﴿نَفَقَتُهُمْ﴾ هو هذه الأسباب:

أولًا: ﴿أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.
ثانيًا: أنهم ﴿لَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ لأدائها ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾.
ثالثًا: أنهم ﴿لَا يُنْفِقُونَ﴾ أية أموال ﴿إِلَّا وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ لدفعها.

وبعد أن أمر الله النبي ﷺ، وكل مؤمن أن يقول لهؤلاء المنافقين ذلك - ما قرأناه منذ قليل - نهاه ﷺ وكل مؤمن عن الإعجاب بما هم فيه من أمور الدنيا، حيث قال جل وعلا:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾
 أي: يا أيها النبي، يا أيها المؤمن ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ أي: لا تنبهر بها، ولا تُفْتِنَ بسببها.

حيث إن ما أوتوه من أموال وأولاد: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ضياعاً لها، أو حرصاً عليها، وبُخلاً بها، وقلقاً نفسياً بسببها، ﴿و﴾ فوق ذلك ﴿تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ﴾ تخرج ساعة سكرات الموت بصعوبة بالغة ﴿وَهُمْ﴾ في الوقت ذاته ﴿كَافِرُونَ﴾.

يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].
 نعم هؤلاء كافرون:

﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُم مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ ﴿٥٦﴾
 يعني: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ كذباً ونفاقاً ﴿إِيَّاهُمْ لِمَنْكُم﴾ يا مسلمون ﴿وَمَا هُمْ﴾ في الحقيقة ﴿مِنْكُمْ﴾ لأن عواطفهم ومصالحهم مع الكافرين، ﴿وَلَكِنَّهُمْ﴾ مع ذلك ﴿قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ يخافون، ولذلك فهم يتظاهرون بأنهم منكم حتى لا تقتلونهاهم لكفرهم الحقيقي. هؤلاء:

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ ﴿٥٧﴾

أي: أن هؤلاء المنافقين ﴿لَوْ يَجِدُونَ﴾ لأنفسهم ﴿مَلْجَأًا﴾ يلتجئون إليه، ويتحصنون فيه مثل: قلعة، أو جزيرة، ﴿أَوْ﴾ لو يجدون لأنفسهم ﴿مَغْرَبًا﴾ جمع غار، وهو سرداب في الجبل ﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ أو: أي مكان يدخلون فيه، ويختبئون منكم، ويتعدون عنكم، لو يجدون ذلك، أو شيئاً منه ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ لذهبوا إليه، ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يسرعون في دخوله، والهروب منكم.

وهذا نموذج آخر من هؤلاء المنافقين:

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ (٥٨)

يعني: هذا فريق آخر ﴿وَمِنْهُمْ﴾ وهم ﴿مَّن يَلْمِزُكَ﴾ أي يعيبك ويطعن عليك ﴿فِي﴾ قسمة ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ أي: الزكاة، أو الغنائم. ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا﴾ ما يأملون لأنفسهم ﴿رَضُوا﴾، ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا﴾ ما ينتظرون ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ عليك، ويتقدون قسمتك وتوزيعك.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ (٥٩)

أي: ﴿وَلَوْ﴾ أن هؤلاء ﴿رَضُوا﴾ وقنعوا، بـ ﴿مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وطابت أنفسهم به، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿قَالُوا﴾ بكل يقين ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: كفانا فضل الله ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: سيرزقنا من عنده، وسيؤتينا ﴿رَسُولُهُ﴾ كذلك من قسمة للصدقات والغنائم، ثم قالوا: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ﴾ وفضله وخيره ﴿رَاغِبُونَ﴾ في عطائه.

لو أنهم: رضوا، وقالوا ذلك لكان خيراً لهم مما هم فيه.

بعد أن ذكر الله غمز المنافقين ولمزهم على النبي ﷺ في قسمة للصدقات، أتبع ذلك - سبحانه - ببيان أنه: هو الذي قسمها - وليس رسوله - وهو الذي حددها - وليس رسوله - وهو الذي بين مصارفها، ولمن تدفع - وليس رسوله، فقال جل وعلا:

﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٦٠)

يعني: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ﴾ وهي زكاة المال تدفع لهذه الأصناف الثمانية الآتية، أو لواحد منها، وهي:

- أولاً: - الفقراء، والفقير: هو الذي لا يسأل الناس؛ لأن عنده ما يكفيه لوقته فقط.
- ثانياً: - والمساكين، والمساكين: هو الذي يسأل؛ لأنه لا يجد شيئاً.
- ثالثاً: - والعاملين عليها، وهم: الذين يقومون بجمعها من أصحابها وتوصيلها إلى الإمام أو نائبه.
- رابعاً: - والمؤلفة قلوبهم، وهم: الذين يؤلف الإمام قلوبهم على الإسلام والمسلمين، ومنهم من أسلم ومنهم من ظل على حاله.
- وقد أوقف الصحابة هذا السهم في صدر خلافة أبي بكر رضي الله عنه، حينما قوي المسلمون، وهذا السهم اليوم مرهون بحال المسلمين قوة وضعفاً.
- خامساً: - وفي الرقاب، وهم: العبيد الذين يريدون الحرية.
- سادساً: - والغارمين، وهم: الذين تجمعت عليهم الديون، ولا يستطيعون لها سداً بأنفسهم.
- سابعاً: - وفي سبيل الله، وهم: المجاهدون للأعداء، المدافعون عن الدين، والديار، والأعراض.
- ثامناً: - وابن السبيل، وهو: المسافر البعيد عن دياره ونفذ ماله.
- هذه الأنصبة، وتوزيعها على أصحابها المذكورين ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾.
- ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بالمصلحة لعباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في هذا التوزيع، كما هو حكيم في كل شيء سبحانه.
- وبعد هذا التوضيح لتوزيع الصدقات الذي اقتضاه الرد على صنف من المنافقين، كانوا يعيبون على النبي ﷺ توزيعه للصدقات، يقدم الله تبارك وتعالى ببيان الحكيم لصنف ثالث من هؤلاء المنافقين، حيث يقول عز وجل:
- ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٦١)
- أي: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين صنف آخر، وهم ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بالكلام ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عليه ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: يفتح أذنه لكل أحد، ويصدق كل ما يقال، صدقاً أو كذباً.

﴿قُلْ﴾ أيها العاقل ردًا عليهم، وإبطالًا لكلامهم: ﴿أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني: سلّمنا أنه أذن يستمع، ولكنه نغم الأذن؛ حيث يستمع الخير فقط، وليس الشر كما تدعون، وكان - ﷺ - أذن خير لأنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ وآياته، ويصدق بهما، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيسمع منهم؛ لأنهم صادقون، كما أنه ﷺ ﴿رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ حيث أنقذهم من الكفر والضلال.

على كل حال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالقول أو بالفعل: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

هؤلاء، ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾:

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٦٢)

يعني: يا أيها الذين آمنوا، هؤلاء ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ أنهم ما قالوا ذلك ﴿لِيُرْضَوْكُمْ﴾ نفاقًا منهم، وكذبًا عليكم، وخداعًا لكم، ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ﴾ وأولى ﴿أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ بالطاعة لتعاليمه ودينه وأوامره ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وذلك ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ حقًا.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٣)

يعني: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أي: هؤلاء المنافقون ﴿أَنَّهُ﴾ فعلًا وصدقًا ﴿مَنْ يُحَادِدِ﴾ يعاند ويحارب ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: شرع الله، وذات رسوله، أو سنة رسوله ﴿فَأَنَّ لَهُ﴾ جزاء على فعله هذا ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ يُعَذَّبُ وَيَقِيمُ ﴿خَلِيدًا فِيهَا﴾.

حقًا: ﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ لهم ولأمثالهم.

والعجيب أن هؤلاء يخشون الفضيحة، يقول الله تعالى:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنْ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ (٦٤)

أي: ﴿يَحْذَرُ﴾ ويخاف ﴿الْمُنَافِقُونَ﴾ من ﴿أَنْ تَنْزَلَ﴾ من الله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: في شأنهم ﴿سُورَةُ نُذِرُهُمْ﴾ وتخبرهم ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من النفاق والكفر، وبذلك: ينكشف سرُّهم، ويفتضح أمرهم عند رسول الله ﷺ والمؤمنين.

﴿قُلْ﴾ يا محمد، ويا أيها المؤمن لهم تهديداً وتخويفاً: ﴿أَسْتَهْزِئُوا﴾ ما شئتم بالإسلام وأهله، ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ وكاشف ما كنتم ﴿تُحَذِّرُونَ﴾ أن يظهر من نفاقكم وكفركم وعداوتكم للمسلمين.

على كل حال: هؤلاء من طبيعتهم أنهم يستهزؤون بالإسلام وأهله، ويستهزؤون بالله وآياته، فإذا ما واجهتهم بأقوالهم ومواقفهم واستهزائهم؛ جبنوا وقالوا: إِنَّمَا كُنَّا نَمُزِح ونلعب، اقرأ هذه الآيات الكريمة، يقول الله تعالى:

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٦٥)

يقول المفسرون: إن المنافقين الذين خرجوا مع المسلمين في غزوة تبوك قالوا فيما بينهم وبين أنفسهم على المسلمين: «إنهم جبناء»، وليسوا أهل حرب، فأنزل الله هذه الآية والتي بعدها، وفيها: أنهم سيقولون عندما يواجهون بما قالوه: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾.

ولمَّا واجههم النبي ﷺ، بعد أن نزل عليه القرآن: قالوا: ما كنا جادين فيما نقول: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ أي نسلّي في الطريق بما يتسلّي به الناس من الكلام، قال رب العزة لحبيبه ﷺ: قل لهم: هذا استهزاء، ثم وبّخهم عليه وقل: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾؟ فإذا اعتذروا قل لهم:

﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفْ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (٦٦)

يعني: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ حيث لا محلّ لاعتذاركم ولا قبول له؛ لأنكم تجرأتُم بما لا يليق ولا ينبغي أبداً على مقام الله عز وجل، وعلى مقام رسوله ﷺ، و ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ الذي ادّعيتموه، وأظهرتموه، باستهزائكم هذا.

ومع ذلك: ﴿إِنْ نَعَفُ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ تتوب إلى الله، وتُخلص في إيمانها، وتُخلص من هذا النفاق ﴿نُعَذِّبُ طَآئِفَةً﴾ أخرى عدلاً منا ﴿يَأْتِيهِمْ كَأَنُومٌ مُّجْرِمِينَ﴾ بإصرارهم على الكفر والنفاق والاستهزاء.

وبعد هذا البيان لنماذج من المنافقين، يبين المولى صفات هؤلاء المنافقين بشكل عام فيقول:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧)

يعني: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ كتلة واحدة وهم يتصفون بشكل عام بست صفات، هي:

- الأولى: ﴿بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ متشابهون تمامًا في كل شيء باطل.
- الثانية: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ من الكفر والمعاصي.
- الثالثة: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ كل معروف يأمر به الشارع.
- الرابعة: بُخلاء ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله.
- الخامسة: غافلون عن ذكر الله ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ فهم في ضلال، حيث نسوه بترك طاعته، فنسيهم بحرمانهم من لطفه وعفوه.
- السادسة: بعيدون عن الهداية، خارجون عن طريق الحق ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وعلى هذا فما جزاؤهم؟

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٦٨)

هذا جزاؤهم أعد الله لهم، والكفار معهم ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها فيهربون، ولا يموتون فيها فيستريحون.

﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ جزاؤهم وعقابهم ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم بهذا من رحمته ﴿فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [النحل: ٨٥].

وفوق كل هذا، ﴿وَلَهُمْ﴾ من الله ﴿عَذَابٌ﴾ لا يعرف حجمه ولا نوعه ولا مقداره أحد وهو ﴿مُقيمٌ﴾ بهم ومعهم وعليهم دائماً.

أنتم أيها المنافقون الكافرون:

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٩)

أي: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أنتم مثل الذين كفروا من قبلكم في الفعل، وفي الجزاء، فهم ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً﴾ في الجسم، وفي الصحة، وفي البطش، وهم كانوا أيضاً ﴿أَكْثَرَ﴾ منكم ﴿أَمْوَالًا وَأُولَدًا﴾، ﴿فَاسْتَمْتَعُوا﴾ وتلذذوا ﴿بِخَلْقِهِمْ﴾ أي: نصيبهم من هذه الأشياء، بالطول وبالعرض، دون مراعاة لمرضاة الله تعالى، واتباع رسله، والانتفاع بآياته سبحانه ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾.

وأنتم استمتعتم بنصيبكم من هذه الأشياء مثلهم، على نحو شيء كما فعلوا هم، وكذلك ﴿خُضْتُمْ﴾ وساهمتم وشاركتهم في الباطل من الاستهزاء بالله وآياته ورسله ﴿كَالَّذِي خَاضُوا﴾.

و﴿أُولَئِكَ﴾ الذين من قبلكم ﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ ضاعت ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ وضيع ثوابها في ﴿الْآخِرَةِ﴾.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ حقيقة ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم حُرِمُوا من الثواب، وأنتم مثلهم سواء بسواء.

ثم يذكرهم المولى - فضلاً منه - بما أصاب الأمم السابقة - عدلاً منه - حتى يحذروا أن يصيبهم مثل ما أصابهم!! فإذا ما انتفعوا بهذا التذكير، واتعظوا من مصائر السابقين: آمنوا.

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤَفِّكَاتِ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

يعني: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ ويعلموا نبأ، أي خبر ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين أمثالهم، ويعرفوا ماذا حدث لهم فيتعظوا، فيؤمنوا؟ ك: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ أهلكتهم الله لتكذيبهم وكفرهم بالطوفان فغرقوا، ﴿وَعَادٍ﴾ قوم هود أهلكتهم الله بالريح العقيم، ﴿وَتَمُودَ﴾ قوم صالح أهلكتهم الله بالزلزال، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أهلكتهم الله بسلب نعمه عنهم، ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ أهلكتهم الله بالظلة، ﴿وَالْمُؤَفِّكَاتِ﴾ وهي قرى قوم لوط، أهلك الله أصحابها بأن قلب بلادهم، وجعل عاليها سافلها.

وما ذلك العذاب إلا لأنهم: ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدلائل الواضحات على صدقهم، فكذبوها وما آمنوا بها، ففعل الله بهم ما فعل، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيما فعل. ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ باختيارهم الكفر على الإيمان.

بعد أن بيّن الله تعالى لنا صفات المنافقين لتجنّبها، وجزاءهم لنفرّ منه، ونبغضه، بيّن لنا تبارك وتعالى صفات المؤمنين لتحلّي بها، كما يبيّن جزاءهم لنعمل على نواله والوصول إليه، حيث يقول عز وجل:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

يعني: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ كتلة واحدة مترابطة متماسكة، وهم يتصفون بشكل عام بهذه الصفات الست:

الأولى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ تربطهم الولاية للحق، والتناصر في الخير، والتعاون على البر والتقوى.

الثانية: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ جنس المعروف، وهو ما أقره الشرع وحسنه، ويحبونه، ويؤدونه أيضًا.

الثالثة: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ جنس المنكر، وهو ما نهى عنه الشرع وقبحه، ويبغضونه، ويتعدون عن الوقوع فيه.

الرابعة: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ فيذكرون الله تعالى في كل آن وحال.

الخامسة: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ ليسوا بخلاء بمال الله على خلق الله.

السادسة: ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل أمر ونهي.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المؤمنون والمؤمنات، الموصوفون بهذه الصفات والموصوفات ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ بواسع رحمته.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ قادر لا يعجزه شيء، عن مكافأة المطيع، وعقاب العاصي ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع كل شيء في محله.

هل بعد هذه الرحمة الواسعة لهم عند الله شيء آخر:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٧٢)

هذا جزاؤهم: أعد الله لهم ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ في منظر بديع، وجو رائع ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ هي لهم، لا يُخرجون منها، ولا تُسلب منهم، وأعد لهم أيضًا ﴿مَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي: منازل تستريح فيها النفس وتطيب فيها الروح، وهذه المساكن ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة لا يعتريها الفناء، ولا يعتريها تحوّل، فوق أنها موصوفة بجريان الأنهار من تحتها، وأيضًا أهلها موصوفون بالخلود.

ولهم - فوق كل هذا - ﴿رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ تعالى ﴿أَكْبَرُ﴾ وأعظم وأفضل من كل هذا، حقًا ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وبعد أن ميّزت الآيات بين المؤمنين والمنافقين، وضحت تمامًا صفات المنافقين؛ أيضًا: بعد أن أمرت آيات السورة - فيما سبق - بقتال المشركين وأهل الكتاب تأمر الآيات هنا بقتال الكفار والمنافقين، حيث يقول ربنا عز وجل:

﴿يَتَّابِعُ النَّبِيَّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَنِسَ الْمَصِيرُ﴾ (٧٣)

يعني: ﴿يَتَّابِعُ النَّبِيَّ جِهْدَ الْكُفَّارِ﴾ بالسيف ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ باللسان والحجة، وليس بالسيف لنطقهم بالشهادتين وكل من كان كذلك فمثلهم، ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كن شديدًا معهم، هؤلاء بالسيف، وهؤلاء بالغلظة في القول، هم يستحقون ذلك. ﴿وَمَأْوَهُمْ﴾ أي: مسكنهم ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ وَنِسَ الْمَصِيرُ﴾ مصيرهم. المنافقون هؤلاء: أمرهم عجيب؛ حيث:

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٧٤)

وهذه الآية: توضح الحكمة في الأمر بقتالهم.

والمعنى: جاهد المنافقين واغلظ عليهم؛ لأنهم: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ أي: يستهزئون بالله وآياته ورسوله، وعندما يواجهون يكذبون، ويخلفون بالله ما قالوا شيئًا، ﴿وَلَقَدْ قَالُوا﴾ وما قالوه: هو ﴿كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ وهو هذا الاستهزاء ﴿وَلَقَدْ كَفَرُوا﴾ بهذا ﴿بَعْدَ﴾ أن أظهروا ﴿إِسْلَامَهُمْ﴾، كما أنهم ﴿وَهُمْ يَوْمًا لَمْ يَنَالُوا﴾ أي: بما لم ينالوه، حيث فوت الله عليهم ذلك، وأبطل كيدهم.

﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ وما عابوا وأنكروا وكادوا للإسلام وأهله ﴿إِلَّا﴾ بعد ﴿أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ حيث أخذوا من الغنائم، فاعتنوا بعد فقرهم الذي كانوا فيه.

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ عن النفاق ﴿يَكُ خَيْرًا لَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِنْ يَسْتَوَلَوْا﴾ عن الإيمان والتوبة من النفاق ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ كلها ولا في السماء ﴿مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينجيهم من هذا العذاب.

وبعد أن كلف الله المسلمين بجهد المنافقين هؤلاء، وبعد أن بين الحكيم الخبير سبب هذا الجهد لهم، يزيدنا الحق تبارك وتعالى تعريفاً بصفاتهم ونماذجهم أكثر وأكثر فيقول جل وعلا:

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥)

أي: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ ومن المنافقين ﴿مَّنْ عَاهَدَ اللَّهُ﴾ قائلًا: ﴿لَئِنْ آتَيْنَا﴾ الله ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ المال ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ منه وندفع زكاته ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾ بسبب هذا الغنى ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ حيث شكره بالإيمان، والعمل الصالح، ودفع الزكاة.

﴿فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٧٦)

يعني: وحينما ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾ الله المال ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ ونالوا ما يتمنونه، وأصبحوا أغنياء قادرين على الصدقة والبذل والعطاء ﴿بَخِلُوا بِهِ﴾ أي بهذا المال عن التصديق منه ﴿وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وانصرفوا إلى أموالهم وأعمالهم، وهم معرضون عن طاعة الله، مُصْرُونَ على هذا البخل، مرتدين عن الإسلام، ممتنعين عن دفع الزكاة. فماذا حدث لهؤلاء؟ يقول الله تعالى:

﴿فَأَعَقَبَهُمُ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧)

أي: ﴿فَأَعَقَبَهُمُ﴾ الله وأورثهم ﴿نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ لا يتخلصون منه، عقاباً لهم، والسبب ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ بالتصدق من المال إذا آتاهم، وقد آتاهم الله المال، ولكنهم أخلفوا الوعد، وهذه من آيات المنافق.

يقول المصطفى ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر». وفي رواية أخرى: «إذا أؤتمن خان».

وكذلك: بسبب ما ﴿كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ فيه، من هذا الوعد.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ (٧٨)
يعني: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ ألم يعلم هؤلاء ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ عز وجل ﴿يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ الذي يتنونه في أنفسهم من العزم على عدم دفع الصدقات!

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أيضًا ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ عز وجل: يعلم ﴿نَجْوَاهُمْ﴾ التي يتناجونها فيما بينهم من الطعن على الإسلام ومبادئه وأهله!

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ كذلك ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ عز وجل ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ فلا يغيب عنه شيء في الأرض، ولا في السماء.

هؤلاء.. اجتمع فيهم من الصفات السيئة: منع الزكاة، وانعدام الصلاح، وخلف الوعد، والكذب.

كما يضاف إلى هذه الصفات: أنهم يعيبون المؤمنين، الذين يتصدقون، يقول تعالى:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٩)
أي: أن هؤلاء المنافقين هم ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ يعيبون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتبرعين بأموالهم ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين، والذين يدفعونها ﴿فِي الصَّدَقَاتِ﴾ زيادة على زكاة أموالهم.. بالرغم من أنهم ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ عندهم من المال ﴿إِلَّا جُهْدُهُمْ﴾ أي: إلا القليل، هؤلاء المنافقون ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ من هؤلاء المؤمنين الصادقين.

وبذلك: فهم يعيبون المكثرين في الصدقات، ويسخرون من المقلين فيها.

﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جزاء على سخريتهم هذه، ﴿وَهُمْ﴾ عنده سبحانه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم يناسبهم وأفعالهم.

ولما نزلت هذه الآيات، وانكشف أمر المنافقين، وعرفهم المؤمنون: جاؤوا إلى النبي ﷺ يعتذرون - من باب تغطية الفضيحة، وليس من باب التوبة - ويقولون: استغفر لنا يا محمد، وهنا: هَمَّ النبي ﷺ أن يستغفر لهم، فأنزل الله قوله تعالى:

﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٨٠)

وفي هذه الآية: يخبر الله تعالى نبيه ﷺ، بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار، وأنه لو استغفر لهم، ولو سبعين مرة، فإن الله لا يغفر لهم؛ لأنهم ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وصاروا فاسقين ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

لقد كان النبي ﷺ شفوفاً بأتمته، راغباً حتى في هداية الضالين منهم، إذ يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: «أسمع ربي قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة؛ لعل الله أن يغفر لهم».

فأنزل الله من شدة غضبه عليهم قوله تعالى:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦].

ثم يذم الله عز وجل المنافقين المتخلفين عن صحبة رسول الله في غزوة تبوك قائلاً:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (٨١)

أي: ﴿فَرِحَ﴾ هؤلاء المنافقون ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ عن الذهاب مع رسول الله ﷺ وصحابته إلى غزوة تبوك ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ وتخلّفهم بعد خروجه ﷺ ﴿خَلَفَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: مخالفين له، ولأنهم ليسوا كالمؤمنين الذين يسارعون إلى الجهاد في سبيل الله فقد ﴿كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وليس هذا فقط، بل ﴿وَقَالُوا﴾ لبعضهم البعض، وللمؤمنين أيضاً ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ لأن القحط شديد،

والحر أشد، والغزو لا يناسب في هذا الظرف، ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي تستصرون إليها بسبب كفركم ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ من أيام الدنيا، التي تمتنعون فيها عن الجهاد ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢)

يعني: ﴿فَلْيَضْحَكُوا﴾ بسبب فرحهم هذا ضحكًا ﴿قَلِيلًا﴾ في الدنيا، ﴿وَلْيَبْكُوا﴾ بسبب ما يلاقونه من عذاب، بكاء ﴿كَثِيرًا﴾ في الآخرة ﴿جَزَاءً﴾ وفاقًا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ويقتربون من أعمال سيئة.

واذهب يا محمد أنت ومن معك من أصحابك إلى الغزو، والجهاد في سبيل الله:

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّنْ نَخْرُجَ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن نَقْتُلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ (٨٣)

أي: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ﴾ فإن عدت بسلامة الله من غزوتك ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المنافقين، لم تتب من نفاقها، ولم ينصلح بالإيمان حالها، وجاءت غزوة أخرى ﴿فَاسْتَدْنُوكَ﴾ أي: الذين لم يتوبوا ﴿لِلْخُرُوجِ﴾ معك للغزو، فعاقبهم بعدة أمور:

الأول: ﴿فَقُلْ﴾ لهم ستحرمون من هذا الشرف؛ حيث ﴿لَّنْ نَخْرُجَ مَعِيَ أَبَدًا﴾ للجهاد في سبيل الله ﴿وَلَن نَقْتُلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ لأنه لا أمان لكم، ولا وفاء لعهد عندكم، ولا صدق في قول لديكم، والدليل على ذلك: أنكم ﴿رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ﴾ والتخلف عن الجهاد ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقت الحاجة إليكم، إذن: ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ المتخلفين عن الغزو والجهاد من النساء والصبيان، والعاجزين عن الجهاد، هذا عقاب.

والعقاب الثاني لهم:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَآ تَوْأَمَهُمْ فَلَيسِقُونَ﴾ (٨٤)

لما مات رأس النفاق عبد الله بن أبي، وكان له ولد مسلم صالح، دعا النبي ﷺ

ليصلي عليه رجاء أن يغفر الله له؛ فصلّى عليه النبي ﷺ ترضية لولده، فنزلت هذه الآية التي تفيد منع النبي من صلاة الجنازة عليهم، ومنعه كذلك من الدعاء لهم بالمغفرة؛ لأنهم ليسوا بأهل لذلك، حيث كفروا بالله ورسوله، وماتوا على ذلك.

والعقاب الثالث: احتقار ما هم فيه من متاع الدنيا، حيث يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٨٥)

أي: لا تُفْتِنَ بما هم فيه من متاع زائل، فهو عذاب لهم في الدنيا والآخرة.

ثم يزيدنا الله تبارك وتعالى بياناً عنهم، وعن مواقفهم.. فيقول جل وعلا:

﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أَذِلُّوا الطَّوْلَ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَلْعِيدِينَ﴾ (٨٦)

يعني: هؤلاء المنافقون لا يتخلفون عن الجهاد إذا دعوتهم أنت فقط للجهاد، بل إنه ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً﴾ من عند الله تعالى في القرآن يأمرهم فيها قائلاً: ﴿أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ﴾ وثقوا في نصره، وأخلصوا له ﴿وَجَاهِدُوا﴾ في سبيله ﴿مَعَ رَسُولِهِ﴾، ﴿اسْتَأْذَنَكَ﴾ في القعود، وعدم الخروج معك ﴿أُذِلُّوا الطَّوْلَ﴾ أي: الأغنياء ﴿مِنْهُمْ﴾ يعني: من هؤلاء المنافقين ﴿وَقَالُوا﴾ لك ﴿ذَرْنَا﴾ اتركنا ﴿نَكُنْ مَعَ الْفَلْعِيدِينَ﴾ الذين لهم أعذار، في التخلف عن الجهاد. وهكذا:

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧)

أي: ﴿رَضُوا﴾ لأنفسهم ﴿بِأَنْ يَكُونُوا﴾ من المتخلفين ﴿مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ من النساء والصبيان والعاجزين عن الجهاد وذلك: لأنه ﴿طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ لاختيارهم الكفر والنفاق بدلاً من الإسلام ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما في الجهاد من الفوز، وما في التخلف من الشقاء.

إذا كان هؤلاء المنافقون قد تخلفوا عن الجهاد في سبيل الله!!

﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ
الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٨٨﴾

نعم، إن تخلف المنافقون عن الجهاد: فقد نهض للغزو مَنْ هُوَ خَيْرٌ منهم، وهم
﴿الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ حيث ﴿جَاهِدُوا﴾ في سبيل الله ﴿بِأَمْوَالِهِمْ
وَأَنْفُسِهِمْ﴾ وبذلك: نالوا شرف الدنيا، ونعيم الآخرة.

﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ في الدنيا بالنصر والغنيمة، وفي الآخرة بالجنة
والكرامة، ﴿وَأُولَئِكَ﴾ أيضًا ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون. حيث:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٨٩﴾

جعلنا الله تعالى معهم من أهل هذا الفوز العظيم، آمين يا رب العالمين.
فالبيان الذي سبق عرضه في الآيات الكريمة: كان عن المنافقين من أهل المدينة،
وهناك منافقون غيرهم، وهم منافقو الأعراب، أهل البادية.
يقول عنهم كذلك رب العزة جل وعلا:

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ
سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٩٠﴾

يعني: ﴿و﴾ عند غزوة تبوك ﴿جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ أي: المعتذرون بأعذار كاذبة
﴿مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ إلى رسول الله ﷺ ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ في التخلف عن الجهاد،
﴿و﴾ فريق آخر من منافقي الأعراب ﴿قَعَدَ﴾ عن الجهاد وتخلف، ولم يعتذر عن هذا
التخلف مثل الفريق السابق، وهؤلاء هم ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: كفروا بالله
وبرسوله مثل مَنْ سبقهم.

على كل حال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: المنافقين، سواء مَنْ اعتذروا
كاذبين، وَمَنْ لم يعتذروا أصلاً، يعني: سيصيب هؤلاء وهؤلاء ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم
لهم في الدنيا والآخرة.

وإذا كان هؤلاء المنافقون المتخلفون عن الجهاد مَنْ اعتذر منهم كذبًا، وَمَنْ لم يعتذر لهم
﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فإنه من رحمة الله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١)

هؤلاء هم المتخلفون بحق، المعذورون عند الله، بل المأجورون على نياتهم وهم: الضعفاء من كبار السن، والمرضى، والفقراء الذين لا يجدون ما يجهزون به أنفسهم، ولا ينفقونه خلال رحلة الجهاد.

هؤلاء: ليس عليهم ﴿حَرَجٌ﴾ إثم وذنوب ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ آمنوا، وأخلصوا، وأطاعوا، في السر والعلانية.

حيث إنه ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ الصادقين ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ للعتاب والمواخظة. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لمن يتخلف بعذر حقيقي، صادق فيه ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم. كذلك أيضًا:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (٩٢)

أي: ﴿وَلَا﴾ حرج ولا إثم ولا ذنب كذلك ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾ إِذَا مَا أَتَوْكَ ﴿قُلْتَ﴾ لا أجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴿تَوَلَّوْا﴾ انصرفوا ﴿وَأَعْيَيْنُهُمْ تَفِيضٌ﴾ أي: تسيل ﴿مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ بسبب أنهم ﴿أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ للجهاد، وفي الجهاد.

وهؤلاء: هم المؤمنون الصادقون، أصحاب الأعدار الصادقة، المقبولة، وليس عليهم من سبيل للعقاب أو العتاب.

لقد تكلمنا فيما سبق في حديث القرآن الكريم عن المنافقين أصحاب الأعدار، الذين يتخلفون عن ساحات الجهاد، وقد ظهر لنا: أنَّ من هؤلاء مَنْ تكون أعدارهم غير مقبولة، ومنهم: مَنْ تكون أعدارهم مقبولة، فهي: إما بسبب الضعف أو المرض، أو الفقر.

وهؤلاء أصحاب الأعدار المقبولة: لا حرج عليهم، ولا مواخظة لهم ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ

﴿وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٩١] بل ليس عليهم من سبيل حتى لمجرد العقاب على تخلفهم هذا.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانًا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٩٣)

يعني: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ للمؤاخذه والعقاب، في الدنيا وفي الآخرة ﴿عَلَى﴾ المنافقين ﴿الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ﴾ في التخلف عن الجهاد ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ في الصحة، فلا مرض يمنعهم، وفي المال، فلا فقر يقعدهم.

ولكنهم ﴿رِضْوَانًا﴾ وأحبوا ﴿أَن يَكُونُوا﴾ بعودهم وتخلفهم هذا ﴿مَعَ﴾ النساء ﴿الْخَوَالِفِ﴾ أي: المتخلفات، وهكذا ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بالكفر ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النافع لهم من الضار بهم. هؤلاء:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٩٤)

يعني: هؤلاء ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ عن التخلف الذي كان منهم ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ وعدتم ﴿إِلَيْهِمْ﴾ من الغزو والجهاد في سبيل الله.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ بالباطل كذبا، فنحن ﴿لَنُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم فيما تعتذرون به، حيث ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ﴾ بأن أوحى إلى رسوله ﷺ بالخفي والمستور ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وأحوالكم وأكاذيبكم.

وليس هذا فقط، بل ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ هل تتوبون أو تثبتون على كفركم؟ ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا، أو ذاك ﴿تُرَدُّونَ﴾ بالموت، ثم بالبعث ﴿إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ وهو الله عز وجل!! ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ويخبركم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويجازيكم عليه.

ولأنهم كاذبون في اعتذاراتهم إليكم ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ من الغزو إليهم!! فإنهم:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يؤكدون أعدائهم الكاذبة بالأيمان الكاذبة أيضاً، بعد عودتكم إليهم، وذلك ﴿لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: تتركوهم بلا توبيخ أو عتاب أو ملامة، يقول تعالى: إذا حدث منهم ذلك ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: اتركوهم، وأهملوهم.

حيث: ﴿إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾ أنجاس الباطن والظاهر، لا تنفعهم موعظة، ولا يصلحهم شيء. ﴿و﴾ أيضاً ﴿مَآوَاهُمْ﴾ أي: مصيرهم إلى ﴿جَهَنَّمُ﴾ وبئس المصير ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

إن هؤلاء أيها المسلمون:

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾

يعني: سيحلفون لكم أولاً ضماناً لعدم أذيتكم لهم، وعتابكم لتخلفهم.

والآن: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ كي لا تعرضوا عنهم وتقاطعوهم، بل ﴿لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ حتى لا تتعطل مصالحهم، وتتضرر منكم دنياهم.

فإن فعلوا ذلك، فلا ترضوا عنهم ﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ فلا فائدة من رضاكم هذا لهم؛ لأنه لا ينفع رضاكم مع سخط الله عليهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعته، ومنهم هؤلاء المنافقين الأعراب، فلا تكونوا مثلهم.

ثم يبين الله عز وجل طبيعة الأعراب الذين لم يهذبهم الإيمان، بقوله عز وجل:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾

﴿الْأَعْرَابُ﴾ وهم سكان البادية والصحراء، هؤلاء: ليسوا جميعاً على نقاء وصفاء، مثل جو حياتهم، بل إن أكثرهم ﴿أَشَدُّ كُفْرًا﴾ بالله ورسوله ﴿وَنِفَاقًا﴾ للمؤمنين؛ لجفائهم وقوتهم، وبُعدهم عن مجالس العلم، ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أي: أحق من غيرهم ﴿أَلَّا

يَعْلَمُوا حُدُودَ ﴿٩٨﴾ وَأَحْكَامَ ﴿٩٨﴾ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿٩٨﴾ مِنَ الدِّينِ وَالشَّرَائِعِ ﴿٩٨﴾ عَلَى رَسُولِهِ ﴿٩٨﴾. ﴿٩٨﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ بِمَا هُمْ فِيهِ ﴿٩٨﴾ حَكِيمٌ ﴿٩٨﴾ فِيمَا يَخْتَارُهُ لَهُمْ مِنَ الْهَدَايَةِ، أَوْ عَدَمِهَا. هؤلاء هم الأعراب بصفة عامة:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾

يعني: ﴿وَمِنَ﴾ أي: ومن هؤلاء ﴿الْأَعْرَابِ﴾ فريق كافر منافق ﴿مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ أي: يُعِدُّ ما يدفعه من مال الزكاة ﴿مَغْرَمًا﴾ خسارة وغرامة؛ حيث يدفعه فقط خوفاً من المسلمين، كما أن هذا الفريق ﴿يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ ينتظر أن يدور الزمان عليكم، وتذهب ريحكم، وتسقط دولتكم، فيتخلص من هذا الإنفاق.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ تدور بإذن الله؛ فيكون الهلاك لهم، لا لكم أيها المسلمون. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده، ومنهم هؤلاء ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعال عباده، ومنهم هؤلاء. وإذا كان هؤلاء الأعراب - كما رأينا - شديدي العداوة للمسلمين!! فإن منهم صالحين يقول الله تعالى:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

أي: ﴿وَمِنَ﴾ هؤلاء ﴿الْأَعْرَابِ﴾ فريق ﴿يُؤْمِنُ﴾ ويصدق ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ مثله مثل مؤمني الحضر، سواء بسواء، وأيضاً ﴿وَيَتَّخِذُ﴾ يعد ﴿مَا يُنْفِقُ﴾ من مال في الزكاة والجهاد ﴿قُرْبًا﴾ أي: تقرباً ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعالى، ﴿و﴾ وسيلة لنوال ﴿صَلَوَاتِ﴾ دعوات ﴿الرَّسُولِ﴾ حيث كان يدعو للمتصدقين. هؤلاء ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ في جنّته ورضوانه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لسيئاتهم.

يقول رب العزة عن أشرف الناس:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ إِلَى اللَّهِ رِزْقُ اللَّهِ عَنْهُمْ وَرِزْقُ اللَّهِ عَنْهُ وَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٠٠)

يعني: وأشرف الناس، هم ﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ إلى الإسلام ﴿مِنْ الْمُهْجِرِينَ﴾، وكذلك: السابقون الأولون إلى الإسلام من ﴿الْأَنْصَارِ﴾، ومعهم كل ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾ على درب الإسلام ﴿يُحْسِنِينَ﴾ إلى يوم القيامة، هؤلاء، وهؤلاء، وهؤلاء: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتهم له ﴿وَرِزْقُ اللَّهِ عَنْهُمْ﴾ بإنعامه عليهم، ﴿وَعَدَّ لَهُمْ﴾ مع هذا الرضى عنهم ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ الرضى عنهم وإعداد الجنات لهم: هو ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وبعد بيان جزاء السابقين الأولين في الإسلام، الذين لم يتخلفوا عن الجهاد، ولم يعتذروا عنه، بيّن الله تبارك وتعالى: جزاء المنافقين من الأعراب أهل البادية، والمنافقين من المدينة أهل الحضرة، الذين تخلفوا عن الجهاد، فيقول:

﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠١)

وهذا: هو القسم الأول من المتخلفين عن الجهاد، وهم المنافقون الذين تمرّدوا في النفاق، واستمروا عليه.

والمعنى: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ يوجد فيهم ﴿مُنْفِقُونَ﴾، ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضًا يوجد منافقون.

هؤلاء، وهؤلاء: ﴿مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ﴾ تمرّنوا عليه، وتفوّقوا فيه ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ من فرط خبثهم، ومع شدة ذكائك وفطنتك، ولكن ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ونعرف سرهم وعلايتهم.

هؤلاء، وهؤلاء: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ مرة بالفضيحة في الدنيا، ومرة بالعذاب في القبر، ﴿ثُمَّ﴾ بعد عذابهم مرتين ﴿يُرَدُّونَ﴾ في الآخرة ﴿إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾.

وهناك - من المتخلفين عن الجهاد - غيرهم يقول عنهم ربنا سبحانه وتعالى:

﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٠٢)

وهذا: هو القسم الثاني من المتخلفين عن الجهاد، وهم المؤمنون الذين ارتكبوا المعصية، بتخلفهم هذا، ولكنهم اعتذروا وهم: أبو لبابة وطائفته الذين ربطوا أنفسهم بسارية المسجد، حتى يتوب الله عليهم.

والمعنى: وهناك قوم ﴿وَأَخْرُونَ﴾ تخلفوا عن الجهاد، ولكنهم لم يعتذروا بمعاذير كاذبة، بل كان اعتذارهم: أنهم ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ وسوء فعلهم في التخلف، هؤلاء ﴿خَلَطُوا﴾ فيما فعلوه ﴿عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو الجهاد، ﴿وَأَخَرَ سَيِّئًا﴾ وعملًا سيئًا وهو التخلف عنه دون عذر، هؤلاء أيضًا ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ حيث اعترفوا بذنوبهم، والاعتراف بالذنب: توبة، كما يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

ويلاحظ: أن ذكر التوبة هنا تطميع لهم أن يتوبوا إلى الله تعالى، لعل الله أن يقبل توبتهم.

ومن باب التطميع في قبول التوبة أيضًا أمر الله تعالى لرسوله - بخصوصهم - قائلا:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٣)

يعني: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي: من أموال هذا الفريق ﴿صَدَقَةً﴾ تكون كفارة لذنوبهم ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ بها من الذنوب ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أي: تُنمِّي مالهم، وتزكي أخلاقهم تهذيبًا وتحسينًا، وكذلك ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم، حيث ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ وطمأنينة لقلوبهم، ورحمة؛ لقبول توبتهم.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لاعترافهم بالذنب، ودعائك لهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بما في نفوسهم.

ومن باب الدعوة إلى التوبة والحث عليها، يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٠٤﴾

يعني: ﴿أَلَمْ﴾ يعلم هؤلاء التائبون قبل توبتهم ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ﴾
الصادقة، ويتجاوز بسببها ﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾ إذا أخطؤا..؟
﴿أَلَمْ﴾ يعلم هؤلاء التائبون قبل دفع صدقاتهم، أن الله هو ﴿يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾
ويقبلها، ويعطيها الفقراء.

﴿أَلَمْ﴾ يعلم هؤلاء التائبون ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فلا يتسرب إلى
نفوسهم يأس وقنوط؟

ومن باب الأخذ بالأسباب وصولاً إلى القبول: يوحى ربنا إلى حبيبه ﷺ بهذه الآية
الكريمة التي يأمره بإعلانها وتبليغها وهي:

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾

يعني: ﴿وَقُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء التائبين ﴿أَعْمَلُوا﴾ عملاً صالحاً ﴿فَسَيَرَى اللَّهُ
عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ حيث لا يخفى عليه شيء، وسيطلع عليه ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ وسيعرفه
المؤمنون، كما أنكم ﴿سَتُرَدُّونَ﴾ يوم القيامة ﴿إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾
وهو الله تعالى ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ ساعتها ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ويجازيكم عليه.

وبعد أن حدثنا ربنا عن هذا الفريق التائب من المتخلفين عن الجهاد، يقول عن غيرهم:

﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجُومَ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٠٦﴾

وهذا: هو القسم الثالث من المتخلفين عن الجهاد، وهم المؤمنون الذين لم يعتذروا
للسلطان ﷺ صراحة، ولكنهم ندموا أشد الندم، وحزنوا - لفعلهم - غاية الحزن.

والمعنى: وغير هؤلاء وهؤلاء قوم ﴿أَخْرَجُوا﴾ تخلّفوا عن الجهاد، وهؤلاء
﴿مُرَجُومَ﴾ أي: مؤخّرون موقوفون ﴿لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ وقضائه، ﴿إِمَّا﴾ أن لا يقبل توبتهم،
فـ ﴿يُعَذِّبُهُمْ﴾، ﴿وَأِمَّا﴾ أن ﴿يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ فلا يعذبهم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بصدقهم وكذبهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يفعله معهم.

القصص التي تحدثنا عنها في الآيات السابقة: عرفنا من خلالها الكثير عن المنافقين وصفاتهم، وفيما يلي يقص الله عز وجل علينا نموذجًا من تصرفاتهم لشق الصف الإسلامي، والعمل على زعزعة وحدتهم، وإضعاف قوتهم، حيث يقول الله سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٠٧)

أي: ﴿و﴾ هؤلاء المنافقون ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ يعني: بنوا ﴿مَسْجِدًا﴾ قرب مسجد قباء ﴿ضِرَارًا﴾ للمسلمين ﴿وَكُفْرًا﴾ بالله، وتقوية للكفر الذي يضمرونه، والنفاق الذي يخفونه ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث يصلي بعضهم بهذا المسجد، وبعضهم بمسجد قباء، فيضعف تجمعهم، ﴿وَإِرْصَادًا﴾ أي: انتظارًا ﴿لِمَنْ﴾ يعرفون، ممن ﴿حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ بناء هذا المسجد، وفيه يتجمعون، وفيه يكيدون للإسلام والمسلمين.

وهم يخفون هذه الأغراض ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ للمسلمين، قائلين: ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ أي: ما أردنا ببنائه ﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ من الصلاة، وذكر الله، والتوسعة على المسلمين. ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فيما ادَّعوه.

وقصة مسجد الضرار هذا: أنه كان هناك رجل اسمه «عامر الراهب» قد ترهب في الجاهلية، ولبس المسوح، وتنصر، واجتمع الناس حوله، فلما ظهر الإسلام، وجاء محمد ﷺ وآمن الناس به، حقد عليه هذا الرجل ومن تبعه، ثم بنى أتباعه مسجدًا، قرب مسجد قباء؛ للأسباب التي ذكرتها الآية السابقة. وقبل خروج النبي ﷺ لتبوك طلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يأتي إليهم، وأن يصلي في هذا المسجد، ويدعو لهم بالبركة، فوعدهم - ﷺ - بذلك بعد أن يعود من الغزو. وهنا نزل قوله تعالى للنبي ﷺ:

﴿لَا نَفْعَ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ حُجَّةً لِمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ قَبْلُ وَلَا يَنْفَعُ الْكُفْرَ شَيْئًا سَاءَ مَا يَحْكُمُ الْقَوْمُ﴾ (١٠٨)

يعني: يا محمد ﴿لَا نَقُومُ فِيهِ﴾ أي: في هذا المسجد الذي بنوه للضرار ولا نُصَلِّ لهم فيه ﴿أَبَدًا﴾.

ثم قال له: ﴿لَمَسْجِدُ أُسْتَسَ﴾ أي: بُني ﴿عَلَى التَّقْوَى﴾ فيه وهو مسجد قباء، الذي أسسته ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ ذهبت فيه إلى المدينة ﴿أَحَقُّ﴾ وأولى ﴿أَنْ تَقُومَ﴾ للصلاة ﴿فِيهِ﴾.

وهذا المسجد، وهو مسجد قباء ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ من النجاسات كلها، وأولها الشرك.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ﴾ ويرضى عنهم، ويحسن إليهم.

ثم بيّن ربنا الفرق بين المسجدين قائلاً:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٩)

يعني: ﴿أَفَمَنْ﴾ هل يستوي من ﴿أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾ مع مَنْ ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ﴾ على حرف وادٍ ﴿هَارٍ﴾ مائل للسقوط، ضعيف الأساس ﴿فَانْهَارَ بِهِ﴾ وسقط ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾

وهل هذا في الخيرية مثل هذا؟

أبدأ: الذي أسس على التقوى ثابت، والذي أسس على الباطل ينهار بصاحبه في نار جهنم. ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ في أفعالهم، وفي أقوالهم، حيث:

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١١٠)

أي: ﴿لَا يَزَالُ﴾ سيظل ﴿بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا﴾ وهو مسجدهم هذا، أو كل ما يفعله المنافقون كيداً للإسلام ﴿رِيبَةً﴾ وشكاً، وضعف إيمان ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ ما داموا أحياء، ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بأن يموتوا، أو ﴿تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ من هذا الشك؛ فيتوبوا.

بعد أن بين المولى سبحانه وتعالى حال المتخلفين عن الجهاد فيما قلناه منذ قليل، يأخذ عز وجل في ترغيب المؤمنين في هذا الجهاد على نحو مزيد على الفضل فيه أبداً حيث يقول جل وعلا:

وَالْمَعْنَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَغْلَى شَيْءٍ عِنْدَهُمْ ﴿أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ وَجَعَلَ ثَمَنَ هَذَا الْغَالِي: مَا هُوَ أَغْلَى مِنْهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لَكُمْ الْجَنَّةُ .

عندما ﴿يَقُولُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيقولون ﴿فَيَقُولُونَ﴾ تارة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أخرى.

وهو وعد من الله سبحانه وتعالى: لا يتخلف أبداً؛ إذ لا يوجد ﴿مَنْ﴾ هو ﴿أَوْفَىٰ﴾
بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ عز وجل.

﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ يا مجاهدون في سبيل البشرى الحسنة ﴿يَبِيعُكُمْ﴾ هذا ﴿الَّذِي﴾
﴿بَايَعْتُمْ﴾ الله ﴿بِهِ﴾ .

واعلموا أن ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ حيث لا ربح أعظم من الجنة.

ولكن: مَنْ هؤلاء المؤهلون لهذا البيع العظيم؟ إنهم:

﴿التَّيُّبُونَ الْعِدَّةُونَ السَّيِّحُونَ الرَّكْعُونَ السَّجِدُونَ الَّذِينَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّاهِي عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٣﴾

أي: ﴿التَّائِبُونَ﴾ عن الشرك والنفاق، غير المصّرّين على المعصية.
 ﴿الْعَبِيدُونَ﴾ لله، المخلصون له.
 ﴿الْحَمِيدُونَ﴾ لله على نعمة الإسلام، وعلى كل حال، وكل نعمة.
 ﴿السَّائِحُونَ﴾ الصائمون، الذين يسيرون في الأرض طلباً للعلم، أو للاعتبار.
 ﴿الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أي: المصلّون لله تعالى، المحافظون على الصلاة.
 ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو: طلب فعل كل ما يأمر به الشرع ويرتضيه.
 ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو: طلب الامتناع عن كل ما نهى عنه الشرع وقبحه.

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ لأحكامه وتعاليمه المتعلقة بالخالق والمخلوق.
 ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ المتّصفين بهذه الصفات أنهم الفائزون برضوان الله تعالى.
 ويلاحظ: أن الآية قد وصفت هذا الفريق من المؤمنين بتسع صفات؛ الست الأولى منها تتعلق بالخالق سبحانه، والسابعة والثامنة. تتعلق بالمخلوق، وهو الإنسان، والتاسعة تتعلق بالخالق والمخلوق.
 ونحن إذا فتشنا في أنفسنا على هذه الصفات سنعرف: لم لا نرى جهاداً في سبيل الله، ولا مسارعة إليه.

ولذلك: فعلى الدعاة إلى الله والمربيين في هذه الأمة أن يركّزوا في تربية الناس على هذه الصفات؛ لإيجاد جيل يحب الجهاد في سبيل الله، ويسارع إليه.

كما نلاحظ: أن أول وصف لهؤلاء المجاهدين هو: التوبة.

ولذلك من لا توبة له - وبالذات من الشرك - لا عُفْران له، بل لا استغفار له، بمعنى لا تُطلب له المغفرة، حتى ولو كان من الأقربين.

ولذلك يقول رب العزة تبارك وتعالى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣)

يعني: ﴿مَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لِلنَّبِيِّ ﷺ﴾ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا﴾ لِلْمُشْرِكِينَ الذين ماتوا مُصِرِّينَ عَلَى الكفر حتى ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾، وذلك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ﴾ وعرفوا وتأكدوا ﴿أَنَّهُمْ﴾ أي: هؤلاء المشركين ﴿أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ لإصرارهم عَلَى الكفر، وموتهم عليه.

وقد نزلت هذه الآية: بسبب استغفار النبي ﷺ لعمه أبي طالب الذي أصرَّ عَلَى الكفر ومات عليه، وكذلك استغفار بعض الصحابة لأبويه المشركين.

قد يجول بخاطرنا أن إبراهيم عليه السلام، قد استغفر لأبيه وهو عَلَى الشرك، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦].

فكيف يباح هناك، ويمنع هنا؟ والجواب في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١١٤)

أي: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ﴾ ﴿لِلْأَبِي﴾ إِلَّا وهو حي، يرجو إيمانه وهدايته، وأيضًا كان هذا الاستغفار: بسبب ﴿مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ أن يستغفر له ربه، ويطلب له الهداية منه، وذلك في قوله له:

﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَحْمَةً إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيَّا﴾ [مريم: ٤٧].

ولا يَصُح أن يخلف وعده، خاصة وأنه حي، والأمل في هدايته قائم، وأما عم النبي ﷺ: فإنه قد مات، ومات الأمل في هدايته.

ومع ذلك ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ أي: لإبراهيم عليه السلام، من جهة الوحي إليه ﴿أَنَّهُ﴾ أي: والده ﴿عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ ولا أمل في إيمانه، وأنه سيموت كافرًا ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وتنصل من صلته به.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه والتألم والشفقة والرحمة ﴿حَلِيمٌ﴾ ومن حلمه أنه كان يترقَّق بأبيه، ويدعو له، بالرغم من التهديد والأذى التي كانت له من أبيه. ولكن ومع هذه الصفات التي كانت فيه: فقد تبرَّأ من أبيه، حينما تبَيَّن له انقطاع الأمل في إيمانه، وكَفَّ عن الاستغفار له.

لَمَّا نَزَلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ لَذَوِيهِمُ الْمُشْرِكِينَ: خَافَ الَّذِينَ اسْتَغْفَرُوا مِنْهُمْ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، خَاصَّةً وَأَنَّهُ قَدْ مَاتَ جَمَاعَةٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا قَدْ اسْتَغْفَرُوا لِأَقَارِبِهِمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ قَوْلَهُ تَعَالَى:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾
 إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِ ﴿١١٥﴾

والمعنى ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أي: ليقضي عليهم بالضلال والعقاب بسبب استغفارهم لموتاهم المشركين ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ للإيمان، ووفقهم للهداية، ﴿حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ من العمل ﴿مَا يَتَّقُونَ﴾ ويتعدون عنه.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلَيْهِ﴾ فلا يؤاخذكم على استغفاركم لهم السابق بعد بيان الحكم لكم بهذا الخصوص.

ويعود السياق للمؤمنين المجاهدين مرة أخرى حيث يحضهم الله على التقوى والجهاد بيان أنه وليهم وناصرهم، فيقول جل وعلا:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١١٦﴾

أي: ثقوا فيه، واعتمدوا عليه، واطلبوا نصرته وحده لكم.
 وقبول التوبة: نعمة كبرى، وهدية من الله عظمى!!
 ندعو الله تعالى أن يرزقنا التوبة، وأن ينعم علينا بقبولها.
 اقرأ معي إنعام الله على أهل غزوة تبوك، قوله تبارك وتعالى:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿١١٧﴾

يعني: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ﴾ أي: عاد بفضلله ورحمته وعقده وتثبيتته ﴿عَلَى﴾ قلب ﴿النَّبِيِّ﴾ وقلوب ﴿الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ وغيرهم من سائر القبائل، ما بين

راكب وماشر، وهم ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ إلى غزو الروم بتبوك ﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ من قلة المال والعتاد، وبعد الطريق، وشدة الحر، وكثرة العدو وقوته، وذلك ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ﴾ عن الثبات على الإيمان ﴿قُلُوبُ قَرِيبٍ مِّنْهُمْ﴾ بسبب هذه الشدائد، ولكن الله ثبتهم ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ من آثام هذه الخواطر، وقوى عزائمهم، وربط على قلوبهم ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

كذلك.. ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٨)

أي: ﴿وَ﴾ تاب ﴿عَلَى الثَّلَاثَةِ﴾ من الصحابة وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، بدون عذر، وندموا ندمًا شديدًا، ولم يختلفوا أعداء كاذبة لتبرير تخلفهم هذا، كما فعل المنافقون، وهم ﴿الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ أي: أرجئوا في قبول توبة الله عليهم، كما في قوله:

﴿وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦].

واشتد ندمهم، وطال انتظارهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ يعني على سعتها ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ من خوفها ﴿وَوَظَنُّوا﴾ وتيقنوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ سخط ﴿اللَّهِ﴾ وغضبه ﴿إِلَّا﴾ بالرجوع والاستغفار ﴿إِلَيْهِ﴾، ﴿ثُمَّ﴾ بعد خمسين يومًا من الانتظار والقلق والترقب ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ وقبل منهم توبتهم ﴿لِيَتُوبُوا﴾ ويصبحوا من جملة التائبين.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ الذي يقبل التوبة ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأهلها.

وهكذا اتضحت لنا ضرورة الجهاد في سبيل الله، ووصف المتخلفين عنه، وبيان جزائهم، ووصف المسارعين إليه، وبيان جزائهم. ثم يأمر الله المؤمنين بتقوى الله، وضرورة انضمامهم للمجاهدين المخلصين، والعلماء العاملين، حيث يقول جل وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩)

يعني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بإقامة شرعه، والعمل بأحكامه،

والإلتزام بتعاليمه، وترك معصيته، ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في إيمانهم، وهم الذين قال الله عنهم:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

ثم يعاقب ربنا - تبارك وتعالى - مَنْ يتخلف عن الغزو في سبيل الله مع النبي ﷺ قائلاً:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢٠)

أي: ﴿مَا كَانَتْ﴾ ينبغي، وما كان يصح ﴿لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الذين تخلفوا عن الغزو في سبيل الله، يوم تبوك ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ﴾ الغزو والخروج مع ﴿رَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾ ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ أي: يصونها عن ﴿الَّذِي رَضِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، لَ﴾ ﴿نَفْسِهِ﴾ مع الشدائد، والبذل في سبيل الله.

وهو: أدب ينبغي أن يلتزمه المسلم مع قيادته الراشدة، التي تجود بنفسها في سبيل الله، و﴿ذَلِكَ﴾ النهي عن التخلف المذكور لسبب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي: الجنود المجاهدون ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ يعني: عطش لقلة الماء، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ يعني: تعب ومشقة، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ يعني: مجاعة لقلة الزاد، ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: الجهاد طاعة لله، ونصرة لدينه.

كما أن هؤلاء المجاهدين ﴿وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا﴾ ينزلون منزلاً، ويدوسون مكاناً بأنفسهم، أو بخيولهم، أو بجيوشهم، أو بمعداتهم ﴿يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ يغضبهم ويؤدي إلى هزيمتهم النفسية، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا﴾ أي: ولا يصيبونهم أية إصابة، أو يحدثون بهم أية هزيمة ينالونها منهم، لا يفعلون شيئاً من هذا ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ﴾ ثواب من الله ﴿عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ مقبول.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في جهاد، أو غيره، أيضاً:
 ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا
 كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾

والمعنى: أن هؤلاء المجاهدين ﴿لَا يُنْفِقُونَ﴾ في سبيل الله ﴿نَفَقَةً﴾ من مال أو غيره ﴿صَغِيرَةً﴾ قليلة ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ كثيرة، وكذلك ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ﴾ في سيرهم للجهاد، ذهاباً أو عودة ﴿وَادِيًا﴾، ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ ما ينفقونه، وما يقطعونه في صحائف أعمالهم، وذلك ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ عليه جزاء ﴿أَحْسَنَ﴾ من ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ به، من أعمال صالحة.

فإذا كان الأمر والثواب بهذا الشكل، فكيف يحدث التخلف؟
 هذا عن موضوع التخلف عن الجهاد في سبيل الله، وما للناس من ثواب إذا لم يتخلفوا، بل جاهدوا وهناك مجال آخر لا ينبغي التخلف عنه: ألا وهو طلب العلم ونشره بين الناس، يقول عنه رب العزة:

﴿وَمَا كَانِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

نزلت هذه الآية بعد أن فضح الله المنافقين لتخلفهم عن الجهاد، وعاد المسلمون من الغزوة، وخافوا من هذا التخلف وصمموا على أن ينفروا جميعاً في كل غزوة مع النبي ﷺ، بل لما بعث النبي السرايا للجهاد: نفروا جميعاً، وتركوه وحده بالمدينة.

والمعنى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ ينبغي أن ينفر ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ للجهاد ﴿كَافَّةً﴾ أي: كلهم ويتركوا النبي ﷺ وحده، خاصة: إذا كان الجهاد فرض كفاية، يقوم به بعضهم نيابة عن الجميع.

﴿فَلَوْلَا﴾ أي: فهلاً ﴿نَفَرَ﴾ أي: خرج من كل فريق من المجاهدين ﴿طَائِفَةٌ﴾ عدد، يبقى مع النبي ﷺ ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ تحصيلًا، وفهمًا، وعملاً ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ بهذا العلم الذي حصلوه وتفقهوا فيه ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين خرجوا للجهاد، وفاتهم هذا العلم، بسبب غيابهم عن مجلس النبي ﷺ ودروسه، وذلك ﴿إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ من ساحات الجهاد ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ ما يجب اجتنابه والتوقي منه.

وهكذا حدثتنا آيات السورة الكريمة: عن وجوب قتال المشركين، وأهل الكتاب، والمنافقين إذا أظهروا نفاقهم، كما حدثتنا عن نوعين من النفير، يحتاجهما الإسلام، وهما: النفير للجهاد، والنفير لطلب العلم.

والآن تضع آيات السورة: دستور الحركة الجهادية في الإسلام، وهي الاستراتيجية التي لا يجوز للمسلمين إغفالها، أو التهاون فيها، حيث تأمر هذه الآيات المؤمنين: بأن يقاتلوا الكفار، الأقرب منهم إلى المسلمين وبلادهم، فالأقرب، وأن يشتدوا عليهم، ويغلظوا إليهم، إذ يقول العزيز الحكيم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٢٣)

يعني: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قاتلوا كل الكفار وهذا واجب، و ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أي: القريبين منكم داراً، أو بلاداً، أو نسباً، وهذا أوجب، ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ﴾ حال قتالكم لهم، بل دائماً ﴿غِلْظَةً﴾ قسوة عليهم، مثل قسوتهم عليكم، ولا تتهاونوا معهم، ولا تتخدعوا بالشعارات الزائفة، التي يطلقونها مثل: دعوى الإنسانية، ومراعاة الرأي العام.. إلخ.

﴿وَاعْلَمُوا﴾ وأنتم تجاهدونهم ﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بعونه، وتأييده ونصره، وأنه إذا اتقيتموه: ينصركم عليهم.

ثم تبين الآيات موقف المؤمنين والمنافقين من القرآن فتقول:

﴿وَإِذَا مَا أَنزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (١٢٤)

يعني: ﴿وَإِذَا مَا أَنزَلَتْ﴾ على محمد ﷺ ﴿سُورَةٌ﴾ من القرآن في غيبة المنافقين ساعة نزول الوحي بها ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لأصحابه ولضعاف الإيمان إذا عرف ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ﴾ السورة بما فيها ﴿إِيمَانًا﴾؟

وذلك: من باب الاستهزاء بالمؤمنين، والإنكار للقرآن!!

ولا يكون منهم جواب، إنما يجيب الحق سبحانه وتعالى بما هو الحق، حيث يقول:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وصدّقوا بالله وآياته، واتبعوا رسوله ﴿فَرَادَتْهُمْ﴾ هذه السورة، كما هو الحال في كل سورة ﴿إِيمَانًا﴾ لتصديقهم بما جاء فيها ﴿وَهُمْ يَسْتَبِشِرُونَ﴾ بكل تكليف يشرفهم به ربهم، وهذا عن المؤمنين حينما تنزل السورة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (١٢٥)

أي: ﴿وَأَمَّا﴾ المنافقون ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وشك، وضعف اعتقاد ويقين ﴿فَرَادَتْهُمْ﴾ السورة بعد نزولها، ومعرفة ما فيها ﴿رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ كفراً جديداً إلى كفرهم السابق، ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ مُصْرُونَ عليه، لم يتوبوا منه.

﴿أَوَّلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٢٦)

يعني: ألا يعقل هؤلاء المنافقون ﴿أَوَّلَا يَرَوْنَ﴾ فيعتبرون؟

بماذا يعتبرون؟

﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ ويُختبرون ﴿فِي كُلِّ عَامٍ﴾ بالابتلاء والنوازل ﴿مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ عسى أن ينصلح حالهم، ويتوبوا إلى الله تعالى من نفاقهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد كل هذا ﴿لَا يَتُوبُونَ﴾ ممّا هم فيه ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ فيعتبرون، فيتوبون.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧)

يعني: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ﴾ على محمد ﷺ ﴿سُورَةٌ﴾ من القرآن، في حضور المنافقين ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ وتغامزوا بالعيون، استهزاء بما جاء فيها، وسخرية من المصدّقين بها، وتدبيراً لهروبهم من هذا المجلس، وتساءلوا بعيونهم أيضاً، وكأنهم يقولون ﴿هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين، إذا قمتم؟ ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ من المجلس، وهم على كفرهم.

﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن الهدى وفهم القرآن، وذلك: بسبب أنَّهم ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ الحق لعدم تدبرهم له، واعتبارهم به.

وبما أن السورة تحت على القتال، وحتى لا يفهم أحد أن هذا الحث على القتال للأعداء في سبيل الله؛ تفريط بالمؤمنين، يبين ربنا تبارك وتعالى: أنَّ بعثة محمد ﷺ، وما فيها من الأمر بقتال الأعداء: هو الخير كل الخير للمؤمنين.

إذ يقول مذكراً لهم بهذه النعمة:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨)

يعني: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ أيها الناس جميعاً، ويا أيها العرب خاصة ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسكم، لا من الجن، ولا من الملائكة، ﴿عَزِيزٌ﴾ شديداً ﴿عَلَيْهِ﴾ ومؤلم لنفسه ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: ما يشق عليكم، ويتعبكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أن تهتدوا، وتؤمنوا، وهو ﷺ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ خصوصاً ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث يريد لهم الخير.

وإذا كان محمد ﷺ على هذا الحال، فإن الله يقول له:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩)

يعني: ﴿فَإِنْ﴾ لم يستجيبوا لك و ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بك، واتباع ما جئت به، والجهاد في سبيل الله ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ يكفيني، ومنه أستمد العون وبه أستنصر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وإليه فوّضت أمري، وبه وثقت، لا بغيره.

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ومن كان رب أعظم المخلوقات على هذا النحو: فإن التوكل عليه يُغني عن جميع المخلوقات.